أعلام الجهاد والاستشهاد (٣)

وفاء الشهيد لدماء الشهداء

قِصّةُ الإمام محمد بن عبدالله النفس الزكية (ع)

تأليف

تحقيق

مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية

مكتبة الوحدة





استفتاح

والله لقد أحيا زيد بن علي ما دثر من سنن المرسلين وأقام عمود الدين إذا أعوج، ولن ننحو إلا أثره ولن نقتبس إلا من نوره

نحن ندعوكم أيها الناس إلى الحكم بكتاب الله وإلى العمل بما فيه وإلى انكار المنكر، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونستعينكم على ما أمر به في كتابه من المعاونة على البر والتقوى

محمد بن عبد الله النفس الزكية

الإهداء

إلى والد الشهيد وأم الشهيد.

إلى طالبي الحقيقة والنهج القويم.

إلى رفاق الدرب وبراعم الإيمان.

إلى كل من ينبض قلبه بحب الشهيد.

إلى هؤلاء جميعاً...

يهدي إليكم الشهيد: يحيى محمد محمد المؤيدي –رحمه الله رحمة الأبرار – كتابه:

حياة الإمام محمد بن عبد الله (النفس الزكية)



تقديم الناشر

مما لا شك فيه أن التاريخ جهل -أو تجاهل- فضائل كثير من الفضلاء، وأتاح الفرصة لأعدائهم فتكلموا فيهم بما لا يليق.

ذلك لأن التاريخ ظلوم جهول متجاهل يتجاهل فضائل المصلحين المخلصين، وكثيراً ما يرفع شأن المبطلين ويثني على المفسدين، لأنه صفحة مفتوحة يسجل فيها الكتَّاب ما يشاءون فيحفظها لمن بعدهم.

فإن لم يجد من أهل الحق من يسجل على صفحاته حقهم، ويذكر فضائلهم، تجاهلها كما تجاهل فضائل من سبقهم، وأبقى كلمات أعدائهم، بل وأبدلهم بالنور ظلمة، وبالصدق كذباً، وبالذكر الجميل ذكراً قبيحاً، وبالحقائق أوهاماً وتشكيكاً. ثم لا يفتر يقلب الحقائق حتى يسمي الشهيد شيطاناً، والآمر بالمعروف ظالماً جباراً، والمصلح الذي يتهالك في إصلاح مجتمعه وأمته مفسداً مكاراً.

ونظراً لما اعتاده بعض المؤرخين من التهميش لتلك الشخصيات العظيمة من أهل البيت عليهم السلام.. وحتى لا يُظلمَ هذا الإمام المؤمن المجاهد، أو يسجل له التاريخ على ألسنة معاديه تاريخاً مظلماً مغلوطاً غير تاريخه الأبلج المشرق بالأنوار المحمدية والفضائل العلوية ..

نقدم هذا الكتاب مساهمة منا في نشر المعرفة؛ وإظهار الحقيقة؛ وتصحيح المفاهيم المغلوطة.

والله من وراء القصد.

الناشر



تقديم أحمد الهادي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلقه أجمعين سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وبعد:

لا زالت كلمات شهيدنا المجاهد العلامة الفاضل يحيى محمد محمد المؤيدي -رحمه الله رحمة الأبرار- يتردد صداها في مسامعي وذلك عصر يوم الثالث والعشرين من محرم الحرام 1421هـ، ونحن مجتمعون في عزاء الوالد العلامة عبد الله يحيى الصعدي (رحمه الله رحمة الأبرار).

قال لي وعلى وجهه ترتسم علامات الحزن والأسى لوفاة العلامة عبد الله يحيى الصعدي، كاسية له تلك الأريحية المعهودة التي تنبي عن توقانه وتلهفه للشهادة..

قال: لقد انتهيت بالأمس من إكمال سيرة الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية عليه السلام، وقصة استشهاده.

وما هي إلا سويعات، ومع جنح الليل وبينما شهيدنا المجاهد يقوم بواجبه في الحراسة في سبيل الله وتأمين المستضعفين، إذا بأيدي الغدر والخيانة والظلم والعدوان ترديه شهيداً في سبيل الله.

لحظات وإذا بشهيدنا في سماء الخلود وكأنه يصيح بأعلى صوته: ((أيها الإمام العظيم أكملت قصة استشهادك، وبطولتك الخالدة التي سال فيها دمك في المدينة المنورة، وفاءً لعقيدتك ومبدئك..

وأنا أيها الإمام من تجري في عروقي دماء النبوة، ويسري في روحي حب الشهادة .. فها أنا ذا أضحي بدمي وروحي فداءاً لعقيدتي ومبدئي، وصوناً لبلدي)).

ولم تمض غير أيام وإذا بي أتصفح ما كتبه الشهيد من وجدانه عن الإمام محمد بن عبد الله (ع) ليتم إعداده للطبع.

ولن أطيل عليك أيها القارئ الكريم.. أو أسترسل في التعبير عن ذلك المؤلف الرائع وعن حياة صاحب اليراع الذي خطه، بل أتركك أنت تترشف من زلاله وتغوص في أعماقه وتسبر غوره بنفسك.

وما يمكن أن أقوله -إن كان لي من قول- إلا أن أقول: ((ذرية بعضها من بعض))، موروثات علوية، وصفات نبوية.

وقد رأيت أن أضع عنواناً لهذا الكتاب الرائع باسم

(وفاء الشهيد لدماء الشهداء)

فقد وفّى شهيد عصرنا لشهيد عصره الإمام محمد بن عبد الله (ع) وضحى بدمائه وفاءاً لتلك المثل والمبادئ المحمدية.

وإني أقـدم اعتـذاري لشـهيدنا عـن أي خلـل قـد يوجـد، وأي سـهوٍ عـن تصـليحه أو وقعـة فيـه، طالبـاً ومستمداً من العلي القدير أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين

أحمد محمد الهادي

27/9/200م



افتتاحية

الطغاة ... ودعاة العدالة... طرفي نقيض على مر العصور.

ففي كل عصر يرسم الطرفان لنا مشهداً تتفاوت شناعته بين طاغية وآخر.

وكذلك يتفاوت البذل فيه بين داعية وآخر.

وبين درجات ومراتب المجد يتسابق الخالدون الداعون إلى العدالة، فتراهم مرة يحلقون في السماء، ومرة ترى الساحة تخلو منهم، وأخرى تراهم يضعفون أمام ضربات الطغاة الذي لا يخلو منهم عصر من العصور.

ولكن التاريخ قد يضاعف المأساة، ويعين الظالمين على ظلمهم عندما يمجِّد الطغاة، ويخفي محاسن رواد العدالة وأصفياء العصور لكي يظفر كاتبوه برضا أو عطاء أمير.

فكان من واجب كل إنسان يؤمن بضرورة الدفاع عن حقوق الإنسان سواءً الحي منهم أو الميت أن يعمل كل ما في وسعه لإظهار الحقيقة.

فإذا كان الماضون من المستضعفين قد سفكت دماؤهم ومثّل الطغاة بأجسادهم، فلماذا نزيد الأمر سوءاً بأن نترك مؤرخي البلاط يهتكون أعراض أهل الحق ليزيدوا سلطانهم الطاغية مجداً إلى مجده.

فأي مظلومية أعظم من أن يُظلم الإنسان حياً وميتاً.

ولذلك أصرخ منادياً لكل كاتب حرٍ يبحث عن الحقيقة أن يسخر قلمه لرفع ذلك الظلم الذي تأباه كل نفسٍ كريمة.

وها أنا ذا أقدم بين يديك عزيزي القارئ هذه السطور المتواضعة لأنتزع من كنوز التأريخ قصة أحد تلك الشخصيات التي حلقت في سماء العظمة، فأراد الطغاة أن يخمدوا صدى ذكرها بعد أن أخمدوا أنفاسها.

ذلك هو الإمام المجاهد الشهيد:

محمد بن عبد الله النفس الزكية (عليه السلام)

الذي أرجو أن أكون قد وفقت في عرض حياته بإسلوب قصصي مبسط.

فتعال معي أخي القارئ الكريم لنعيش مع هذا الإمام أيام حياته التي ما ترك له الطغاة فيها راحة إلا ونغَّصوها.

المؤلف



الباب الأول

الفصل الأول

(1)

كانت آخر سنوات قرن من الزمان منذ الهجرة النبوية تتأهب للرحيل ... كانت أيام ذلك القرن الذي تكاد أن تنصرم سنواته ذات بصمات خاصة، فقد أثرت أحداثه على العالم بأسره.

كان كل بلد في العالم يمكن أن يحكي جزءاً من تاريخ ذلك القرن .. ولكن المدينة المنورة كانت قادرة على أن تحكي جميع أجزاء ذلك القرن .. فقد عاشت لتشهد بساحاتها أيامه الأولى، وأشرقت شمس يوم من أيام عام 96هجرية، لتتشرف أشعتها بمصافحة تلك الآثار التي لا مسها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم براحته ولتسعى أشعتها على تراب شرَّفه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعل منه موطن نعله.

ومع انبعاث تلك الأشعة من مشرقها انبعث فتيانٌ في ريعان شبابهم من جوار محراب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنما وجوههم هي القمر... فأقبلوا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..فأطالوا الوقوف إلى جواره، ونهضوا كأنهم يلتمسون الإذن منه في الإنصراف من مسجده..

ثم انصرفوا إلى دار قريب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلسوا إلى أمهم فاطمة بنت الحسين، فجعلت تنظر إلى أكبرهم سناً.. فرفع نظره إليها وقال لها:

– أماه.. ماذا ترين؟.. هل أنكرتِ مني شيئاً؟.

فاطمة بنت الحسين: لا يا عبد الله ... ولكني أرى أنك قد أصبحت فتىً يافعاً، ألا تختار لك زوجة؟

عبد الله: إن كنت ترين ذلك يا أماه .. فاذهبي واخطبي لي هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة.

فاطمة بنت الحسين: إذن تردك يا عبد الله .. أتطمع في هند وقد ورثت من عبد الله بن عبد الملك بن مروان ما ورثَتْ، وأنت تَرِب لا مال لك؟!.

سكت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) ولم يجب أمه بشيء.

وبعد قليل خرج من البيت وجعل يمشي في شوارع مدينة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يمر بقوم إلا ويدركون له فضله ومقامه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فرغم صغر سنه فقد كان معروفاً عند أهل المدينة لما اتصف به من مكارم الأخلاق وغزارة العلم وسعة حلمه، حتى كان يلقب بينهم بالكامل.

فجعل يمضي إلى جهة ما.. وكأنه قد أضمر في نفسه أمراً أخفاه عن الجميع..

فلما مر بدورٍ لبني المطلب توقف .. فرأى شيخاً ذا هيئة ووقار واقفاً على باب أحد تلك الدور فتوجه إليه .. فلما وقف بين يديه أحسن الشيخ استقباله.

عبد الله: لقد أتيتك يا عماه خاطباً ابنتك هنداً!!.

أبو عبيدة: على الرحب والسعة يا ولدي .. أما مني فقد زوجتك .. مكانك لا تبرح.

وأسرع إلى داخل الدار، فدخل على ابنته هند في مقصورتها..

أبو عبيدة: يا بنية .. هذا عبد الله بن الحسن أتاكِ خاطباً.

هند: فما قلت له؟.

أبو عبيدة: زوجته إياك.

كانت هند تعرف لعبد الله مقامه ... فلم تكن لتتردد في قبول خطبته..

هند: أحسنت يا أبتِ فقد أجَزْتُ ما صنعت.

ثم إلتفتت إلى غلام لها وقالت له:

– قم إلى عبد الله فأخبره أن لا يبرح حتى يدخل على أهله.

فخرج أبو عبيدة مع الغلام .. فدخل على عبد الله وزف إليه الخبر.. وأعرس بها عبد الله من ليلته..

وبقي سبعة أيام لا تعرف له أمه خبراً.. لأنها كانت تعهد عليه طول غيابه لما كان يخرج إلى آبائه وعمومته من بني هاشم فيمكث عندهم أياماً..

وفي اليوم السابع توجه نحو أمه.. فلما دخل عليها.. نظرت إليه نظرة من يستغرب حاله .. فقد تغيرت ثيابه .. وملأ الدار رائحة من طيبه.

فاطمة: من أين لك هذا؟!

عبد الله: من عند التي زعمتِ أنها تردني، زوجتي هند بنت عبيدة.

(2)

مضت الأيام وحملت هند من عامها الأول ... وعلم آل أبي طالب بحملها.. وسر عبد الله بن الحسن بذلك الحمل .. ومر الشهر التاسع منذ بداية الحمل.. وانصرم العام الأول، وتلاه العام الثاني ... وعبد الله ينتظر المولود..

وكان بنو علي (ع) يجتمعون إلى فاطمة بنت الحسين (ع)، فتقبل على الصبيان من بنيها وبنيهم لتقبلهم، وكأنها تبحث عن شيء فيهم..

فأقبل عليها عبد الله قائلا:

– يا أماه .. خشيت أن نُسمّى بني القابلة .. فهلا تركتِ الإصرار على تقبيل هؤلاء الصبيان.

فاطمة: إن لي طِلْبَةً لو ظفرت بها لتركت ما ترون؟

وكانت تكرر السؤال عن هند بنت أبي عبيدة..



لقد كاد العام الثالث ينصرم منذ حملت .. وهند لم تضع مولودها بعد.. وشاع في الناس أنها إنما تتظاهر بالحمل حتى لا يتزوج عليها عبد الله..

وفي العام الرابع من حملها أقبل عليها أبوها وقد اشتد غضبه وظن بها الكذب... وطرق عليها الباب بشدة.

فلما فتحت له بابها قال لها في غضب:

- أنت المتحاملة على عبد الله بن الحسن فرقاً أن يتزوج عليك.

وأراد ضربها وتأديبها .. فصفقت الباب دونه..وجعلت تهدئ من روع أبيها وتقول له:

- يا أبي إني لا أكذب .. فورب الكعبة والبيت الحرام إني لحامل.

فقال لها أبوها:

- أما لو فتحت الباب لعلمت ما ينزل بك اليوم مني.. ثم تركها وانصرف.

***

وعلى رأس أربع سنين منذ الحمل .. ومع آخر أيام القرن الهجري كانت هند تضع مولودها الأول..

فأقبل عبد الله بن الحسن بالمولود على أمه فاطمة بنت الحسين (ع) فكشفت ما بين جنبيه...فرأت ختماً أسوداً عظيماً.. فنظرت إلى ولدها عبد الله وهي تقبل ذلك المولود ثم قالت له:

- لقد ظفرت بما أطلب .. فلست بعائدة بعد اليوم إن شاء الله إلى تقبيل صبيانكم..

ولما علمت فاطمة بنت علي بن أبي طالب (ع) بولادة هند أقبلت نحو دار عبد الله بن الحسن.. فدخلت على هند فأخذت مولودها... وأدخلت أصبعها في فمه ... فإذا في لسانه عقدة فأظهرت اهتمامها به ... فكانت تأخذه عندها وتنزله دارها، وجعلت تهتم بتربيته أعظم اهتمام، حتى لقد كان ينزل عندها أكثر مما ينزل في دار أبيه وأمه.

ولم تمض سنة حتى رزق عبد الله بمولود آخر فسماه إبراهيم.

فلما بلغ محمد وإبراهيم من العمر سن التمييز أقبل بهما والدهما يوماً إلى عبد الله بن طاووس وقال له: حدثهما لعل الله ينفعهما.

فلما تخرج محمد من الكتّاب وعاد إلى بيت فاطمة بنت علي بن أبي طالب أعدت طعاماً وجمعت وجوه أهل بيتها ... فلما أكلوا أخرجت إليهم محمداً وأخبرتهم بمكنون سرها.

فاطمة بنت علي: اللهم إن أخي الحسين كان دفع إلي سَفَطاً بخاتمه ... والله ما أدري ما فيه ... وأمرني إذا ولد هذا الغلام أن أدفعه إليه..

ثم دعت بالسَّفَط فدفعته لمحمد بن عبد الله بمحضر القوم .. وحمل معه إلى منزله ما تدري ما فيه.

فاشتهر الأمر وعرف الناس بذلك.. فكثرت الأقاويل.. وتوسم الكثير من الصلحاء في هذا الغلام الخير لهذه



الأمة .. لما كان له من الأدب والخلق الحسن.

***

وجَدَّ محمد بن عبد الله في طلب العلم حتى جعل لا يفارق فضلاء وعلماء أهل المدينة.. ينتظرهم ويجلس بين أيديهم كأنما هو غلام لأحدهم..

فقد مر رجل على محمد بن عبد الله.. وقد أخذه النوم على باب أحد علماء الأنصار.. فظن الرجل أن محمداً غلام لذلك الأنصاري .. فأيقظه من نومه وقال له:

- يا غلام، استيقظ فقد خرج سيدك إلى الصلاة.

وقد زاده الله بسطة في العلم والجسم .. فكان في ريعان شبابه .. لا يبارى في القوة.

فبينما هو مع أبيه بسويقة .. وكان بين يدي أبيه عبد الله بن الحسن صخرة.. فلما عجز عبد الله عن قلعها قام محمد بن عبد الله وجعل يعالجها يريد انتزاعها .. كانت الصخرة عظيمة قدرها بعضهم بألف رطل.. ولم يكن في ذهن أحد أن هناك من يقدر على انتزاعها.. وبالفعل قلعها حتى جعلها على ركبتيه.. فلفت انتباه الحاضرين..

فلما رأى عبد الله بن الحسن نظرات الناس تحوط ولده خاف عليه وصاح فيه قائلاً: أتركها يا محمد.

فاستجاب محمد لأمر والده .. فلما ذهب عبد الله .. أقبل محمد على الصخرة فأبعدها عن طريق الناس..

***

ذاع صيت محمد بن عبد الله.. وجعل بعضهم يقول بأنه المهدي.. والبعض يعتقد فيه أنه هو النفس الزكية المبشر به من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

كانت كل تلك الأقاويل والشائعات تسري بين الناس في وقت كانت الدولة الأموية تعيش أحرج الظروف .. فقد دب الخلاف داخل البيت الأموي، وقتل بعضهم بعضاً، فقد قتل الوليد بن يزيد في جماد الآخر سنة 125هجرية، وثارت الفتنة في البلاد وانقسم البيت الأموي على نفسه، وبعد مدة من الزمن تمكن مروان بن محمد بدهائه وسياسته أن يمسك بزمام الأمر ويخضع البيت الأموي لأمره وسلطانه ويرسل ولاته إلى سائر الأمصار، محاولاً أن يعيد للدولة الأموية هيبتها ومجدها.

ولكن البيت الأموي كان قد بالغ في الإساءة إلى أبناء الأمة .. وإنكاء قلوبهم.. فتوالت الثورات في البلاد الإسلامية -خصوصاً مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لتعلن رفضها للتسلط الأموي..

الفصل الثاني

(1)

عيّن الخليفة الأموي مروان بن محمد والياً له على المدينة يسمى عبد الملك بن عطية وأوصاه ان لا يمس أحداً من أهل البيت بسوء.. فقد كان مروان بن محمد يدرك بذكائه وفطنته أن التعرض لأحد من أهل البيت في تلك الفترة ما هو إلا ضرب من الحمق والجنون .. فالناس قد تعلقت قلوبهم بأهل البيت.. وأصبحت الدولة الأموية في أشد الضعف، ولم يبق دار إلا وقد دخله السخط على البيت الأموي..

وحين وصل عبد الملك بن عطية إلى المدينة خرج أهل المدينة لاستقباله وتخلف عبد الله بن الحسن وبنوه.. فقد علم عبد الله بن الحسن أن هناك من سعى بولديه عند مروان بن محمد فخاف عليهما.

فلما دخل الوالي دار الامارة هناك.. أرسل في طلبهم فلما حضروا إلى مجلسه عنّفهم أشد تعنيف وهمَّ أن يضرب أعناقهم .. لولا أنه تذكر وصية مروان له أن لا يتعرض لأحد منهم بسوء.

وجعل الوالي يراسل الخليفة بأخبار المدينة أولاً بأول، ومن ضمنها أخبار عبد الله بن الحسن وبنيه .. فأرسل مروان إلى واليه:

((من أمير المؤمنين مروان بن محمد إلى عبد الملك بن عطية .. لا تتعرض لعبد الله بن الحسن وبنيه وإن استتروا منك بثوب فلا تكشفه، وإن كان جالساً على جدار فلا ترفع رأسك إليه)) ..

ثم كتب مروان بن محمد رسالة أخرى إلى عبد الله بن الحسن ضمنها هذه العبارة: ((أكفف عني بنيك))..وارفقها بعشرة آلاف دينار.

وما إن قرأ عبد الله رسالة مروان حتى أيقن أن الخليفة قد أضمر في نفسه شيئاً وأن أحداً قد أوغر صدره عليهم .. فأحب أن يقطع الطريق على أصحاب السوء الذين اعتادوا أن يجعلوا من الوشاية بأهل هذا البيت وسلية وزلفة يتقربون بها إلى الأمراء والولاة.. فقرر أن يشدَّ رحاله إلى بلاد الشام يرجو أن يلقى مروان. ويقرأ في ملامح وجهه وفلتات لسانه ما يضمر له ولولده وأهل بيته.

***

توجه عبد الله نحو الشام حتى وصل إلى قصر الخلافة بدمشق..

فلما دخل على الخليفة في قصره –وقد أحاط به قواده ووزراؤه– إستقبله مروان أحسن إستقبال واجلسه إلى جواره..

مروان: ماذا فعل مهديكم يا عبد الله؟

عبد الله بن الحسن: لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين .. فليس الأمر كما يبلغك.

مروان: بلى .. ولكن يصلحه الله ويرشده.

ثم أطرق قليلاً يفكر في أمر ما .. ثم رفع رأسه وجعل ينظر إلى عبد الله..

مروان: إئتني بابنك محمد يا عبد الله.



عبد الله: وما تصنع به يا أمير المؤمنين؟

مروان: لا شيء .. لا شيء .. إلا أنه إذا أتانا أكرمناه .. وإن قاتلنا قاتلناه .. وإن بعد عنا لم نهجه.

اكتفى عبد الله بما سمع .. فقد أدرك أن مروان بن محمد يسير على طريق آبائه وأنه يضمر لهم الشر وما يرده عن الفتك بآل محمد إلا ضعف دولته..

وبادر عبد الله من ساعته للعودة إلى المدينة.. وشدَّد في إخفاء بنيه وأمرهم بالإستتار مخافة أن ينال بنو أمية منهم.

(2)

زاد الناس من محنة عبد الله وبنيه .. بما كانوا يختلقون من الشائعات التي دخلت إلى كل بيت ووصلت إلى مسامع ولاة الدولة الأموية وأمرائها، مما جعل الناس لا يدخلون المدينة إلا ويسألون عن دار عبد الله بن الحسن ليروا ابنه محمداً الذي سموه بالمهدي .. فاضطر محمد بن عبد الله إلى الخروج من المدينة والتخفي ..

ولما دخل محمد بن عبد الله المدينة في أحد الأيام متنكراً عرفه أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان أبو جعفر جالساً مع بعض رفاقه، فلما خرج محمد بن عبد الله من دار أبيه أسرع أبو جعفر إليه .. فأخذ بردائه حتى ركب ثم سوى ثيابه على السرج.

وجعل أبو جعفر يبالغ في الإجلال لمحمد بن عبد الله حتى تعجب أصحابه مما رأوا .. فلما عاد إليهم أبو جعفر قال له عمير بن الفضل:

- من هذا الذي أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركابه وسويت له ثيابه؟!..

أبو جعفر: أو ما تعرفه؟

عمير بن الفضل: لا.

أبو جعفر: هذا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مهدينا أهل البيت.

***

وكان السبب في اعتقاد الناس بأن محمد بن عبد الله هو المهدي هو تلك الرواية التي مفادها أن المهدي اسمه اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم واسم أبيه كاسم أبي النبي.

وتلك العلامة كانت موجودة في محمد بن عبد الله مع ما هو عليه من الفضل والعلم والشجاعة وقوة الجسم .. الأمر الذي جعله يزداد في قلوب الناس ميلاً إليه وحباً له.

ولكن عبد الله بن الحسن كان يبالغ في نفي ذلك عن ولده .. فقد كان أهل البيت يعلمون أن موعد خروج المهدي لم يحن بعد.



ولكن الأخبار التي كان أهل البيت يتناقلونها تشير إلى أنه النفس الزكية التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أطل زمانها.

ولعل عبد الله كان قد توسم في ولده محمد أنه المقصود بالرواية.. فقد أقبل عليه بعضهم وهو جالس فجلسوا إليه يحادثونه..

أحدهم: متى يخرج ولدك يا أبا محمد؟.

عبد الله: لا يخرج حتى أموت، وهو مقتول.

محمد بن بشر: إنا لله وإنا إليه راجعون .. هلكت والله الأمة.

عبد الله: كلا.

محمد بن بشر: فإبراهيم؟

عبد الله: ليس بخارج حتى أموت، وهو مقتول.

محمد بن بشر: إنا لله وإنا إليه راجعون .. هلكت والله الأمة.

عبد الله: فإذا مت خرجا جميعاً، فلا يلبثان إلا وهما مقتولان.

محمد بن بشر –في حسرة وألم: إنا لله هلكت والله الأمة.

عبد الله: كلا يا محمد .. فإن صاحبهم منا غلام شاب ابن خمسٍ وعشرين سنة يقتلهم تحت كل حجر ..

ولكن لم يكن مثل هذا القول كافياً لتكذيب تلك الشائعات التي آمن بها سائر الناس القريب والبعيد والخاص والعام..

***

وفي أحد الأيام اجتمع جمع من بني هاشم .. وأقبلوا على عبد الله بن الحسن وولديه محمد وإبراهيم وهم في الأبواء .. فضم ذلك المجلس إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .. وأبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وصالح بن علي بن عبد الله بن العباس .. ومحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان –وكان أخاً لعبد الله بن الحسن من أمه.

صالح بن علي: قد علمتم أنكم الذين تمد الناس أعينهم إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسكم وتوثقوا على ذلك حتى يفتح الله والله خير الفاتحين.

أبو جعفر: لأي شيء تخدعون أنفسكم، والله لقد علمتم ما الناس إلى أحدٍ أصور أعناقاً وأسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى –يريد محمد بن عبد الله (ع).

فأجابه الجميع: قد صدقت والله إن هذا لهو الذي نعلم.

وبايعوا جميعاً محمد بن عبد الله ومسحوا على يده.



ثم أرسل عبد الله بن الحسن إلى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين.. فأقبل على الفور.. حتى وصل إلى هنالك وهم مجتمعون.. فأوسع عبد الله لجعفر بن محمد واجلسه غلة جواره.

جعفر بن محمد: لأي شيء اجتمعتم؟

عبد الله بن الحسن: احتمعنا لنبايع محمد بن عبد الله.

جعفر بن محمد: لا تفعلوا فإن هذا الأمر لم يأت بعد.. ولكنا والله لا ندعك يا عبد الله وأنت شيخنا ونبايع ابنك.

عبد الله بن الحسن: لقد علمت خلاف ما تقول، ولكن يحملك على هذا الحسد لإبني.

جعفر بن محمد: والله ما ذاك يحملني.. إنها والله ما هي إليك ولا إلى إبنيك.. وإن إبنيك لمقتولان.

ثم نهض جعفر بن محمد وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري ثم قال له:

- أرأيت صاحب الرداء الأصفر -يعني أبا جعفر؟

عبد العزيز: نعم.

جعفر بن محمد: فإنا والله نجده يقتله.

عبد العزيز: أتقصد أن أبا جعفر يقتل محمد بن عبد الله؟!

جعفر بن محمد: نعم..!

ولما خرج الإمام جعفر بن محمد(ع) لحقه أبو جعفر وقال له:

- أتقول هذا يا أبا عبد الله؟!

جعفر بن محمد: نعم أقوله والله واعلمه..!

وبعد أن انصرف جعفر بن محمد تفرق من في المجلس، وقد أجمع أمرهم على أن يجددوا البيعة مع من بقي من بني هاشم ومواليهم في بيت الله الحرام بمكة.

فلما كان بعد ذلك بزمن .. بايعوا محمد بن عبد الله عند البيت الحرام بمكة.

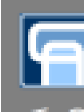
فلما أراد محمد بن عبد الله الانصراف، خرج أبو جعفر فأمسك لمحمد الركاب.. فلما استوى محمد على فرسه التفت إليه أبو جعفر -وكأنّ أمراً ما يدور في خلده- ثم قال له:

- أما إنه إن أفضى إليكم هذا الأمر نسيتَ لي هذا الموقف!!

(3)

كانت قد انتشرت بين الناس تنبؤات تقول أنه لا حظَّ لبني الحسن في الملك وأن بني العباس يرثون هذا الأمر..

إلا أن مثل تلك التنبؤات لم تكن لتثني محمد بن عبد الله عن المضي فيما هو عازم عليه .. فهو تلميذ الإمام



زيد بن علي (ع) خرج معه وجاهد بين يديه.. ورافق يحيى بن زيد زمناً طويلاً..

لذلك فقد أرسل محمد بن عبد الله دعاته إلى الأمصار، يطلبون له البيعة..

وانطلق دعاة بني هاشم وأتباعهم في أرجاء البلاد الإسلامية يدعون الناس إلى مبايعة محمد بن عبد الله (ع).

وكان من أهم العوامل التي سهلت مهمة الدعاة .. وساعدت على نجاح هذه الدعوة هو ضعف الدولة الأموية واشتداد وطأة الظلم الذي تعانيه الأمة الإسلامية.. في الوقت الذي كانت شهرة محمد بن عبد الله قد بلغت المنتهى ..

كان الدعاة يدعون إلى مبايعة محمد بن عبد الله إلا نفراً من بني العباس فإنهم كانوا يدعون الناس إلى الرضا من بني هاشم ولا يصرحون باسم أحد .. بعد أن أضمروا في أنفسهم أنه إن تم لهم هذا الأمر استخلصوه لأنفسهم..

وبينما عبد الله بن الحسن جالس في أحد الأيام مع أبي العباس –الذي لقب فيما بعد بالسفاح– وأبي جعفر– الذي تسمى بالمنصور– ومعهم أخوهم الأكبر إبراهيم بن علي .. إذ دخل عليهم رجل فسألهم:

– أين إبراهيم بن علي منكم؟..

إبراهيم: أنا هو.

فتقدم الرجل .. وهمس في أذن إبراهيم بن علي بكلام.. ثم خرج الرجل على الفور فتبعه إبراهيم وبنو العباس .. فلما انفردوا عن عبد الله بن الحسن وولده قال لهم:

– يا مولاي .. قد أخذت لك البيعة بخراسان، وجمعت لك الجيوش .. فأقبل.

وهنا تذكّر أبو جعفر ما قاله الإمام جعفر بن محمد –من أنه يقتل محمداً وإبراهيم– فعلم أنه لا يقدر عليهم إلا إذا صار الأمر إليه أو إلى إخوته .. ففهم أن الملك صائر إليهم..

فأعدوا العدة لهذا الأمر .. وكتموا أخبارهم عن عبد الله بن الحسن وأولاده، وصاروا يتقربون إلى الناس بآل علي بن أبي طالب (ع).

وجعلوا من محمد بن عبد الله وسيلة يدخلون بها إلى قلوب الناس .. فلما تم لهم ما دبروا، واستوثقت لهم البيعة من شيعة خراسان .. جعلوا لا يكترثون من التكتم من هذا الأمر.

فقد دخل عبد الله بن الحسن وأخوه الحسن بن الحسن ومعهم رجل اسمه عبد الله بن الحسن بن تراب على داود وعبد الله بن علي بن عبدالله بن العباس.

فأقبل داود يحدث عبد الله بن الحسن .. ثم سأله:

– ألم يحن الوقت لظهور محمد؟

عبد الله بن الحسن: إن الوقت لم يحن لظهوره.



فالتفت عبد الله بن علي إلى عبد الله بن الحسن .. فقال:

سـيكفيك الجعُالـةَ خفيف الحـاد مـن فتيـان

مستميت جَرْمِ

ثم قال:

- أنا والله الذي قد أظهر عليهم وانتزع ملكهم [يقصد بني أمية].

فخرج عبدالله وقد أدرك أن القوم قد خذلوا ولده .. وأنهم يريدون الأمر لهم.

***

وفعلاً كان دعاة محمد بن عبد الله من بني العباس قد طمعوا في الأمر وأرادوه لأنفسهم فكانوا إذا أنسوا إلى أحد أخذوا البيعة منه لإبراهيم بن علي بن عبد الله بن العباس.

وكانوا يشيعون في خواصهم أن محمد بن عبد الله حديث السن، قليل العلم.

فقد أقبل القاسم بن مسلم وأبو خلف على عيسى بن زيد بن علي بن أبي طالب (ع) يسألانه عن أمر محمد بن عبد الله.

القاسم بن مسلم: لقد حدثنا بعض من يعرف محمد بن عبد الله أنه حدث السن لا فقه له.

عيسى: إسمع يا هذا .. والله لو أن الله جل ثناؤه حدثنا في كتابه أنه يكون من بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي لقلنا إن ذلك محمد بن عبد الله بن الحسن.

فخرج الرجلان من عند عيسى بن زيد يرجوان لقاء محمد بن عبد الله (ع).. وأقبلا عليه في داره بينبع .. فدخلا عليه .. فإذا هو في كسائين قد ائتزر بأحدهما والتحف بالآخر.. فصارحه القاسم بن مسلم بما سمع من الناس.

القاسم بن مسلم: جعلت فداك يا أبا عبد الله .. إن الناس يقولون لنا أن صاحبكم حدث السن ليس له فقه..

فنظر محمد بن عبد الله إلى القاسم وصاحبه .. ثم إلتقط سوطاً كان بين يديه .. فأدخل علاقته في يده .. ثم قال:

- يا قاسم.. ما يسرني أن الأمة اجتمعت عليّ فكانت كعلاقة سوطي هذا .. وأني سئلت عن باب حلال أو حرام لم أجئ بالمخرج منه.. يا قاسم بن مسلم.. إن أضل الناس -بل أكفر الناس- من ادعى أمر هذه الأمة.. ثم يسأل عن باب حلال أو حرام لم يجيء بالمخرج منه.



الفصل الثالث

(1)

توالت الثورات على دولة بني أمية وتفاقمت الأمور على مروان بن محمد .. فقد ثار أبو مسلم الخراساني وأبو سلمة الخلال في خراسان .. وزحفت الجيوش الخراسانية بقيادة أبي مسلم وأبي سلمة .. فلم تثبت لها الجيوش الأموية .. وتقدمت حتى صارت تعسكر في أطراف العراق.

فلما علم بنو العباس بذلك خرجوا من المدينة متخفين يطلبون العراق للقاء دعاتهم.

ودخل الجيش الخراساني الكوفة سنة 132هـ .. وقام أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ليبايع الناس له .. بعد أن علم أن مروان بن محمد قد قتل أخاه إبراهيم.

وجعل الجيش الخراساني يحرر البلاد الإسلامية من بقايا الجيوش الأموية .. وتوالت الهزائم بالجيش الأموي .. وبعد كل هزيمة يفقدون بلداً .. حتى قتل مروان بن محمد سنة 133هجرية..

واستيقظ شيعة أهل البيت (ع) بعد أن خاضوا عشرات المعارك ضد بني أمية ليروا من يعتلي عرش الخلافة .. مؤملين أن يروا ذلك الذي بايعوه بالأمس.. وهتفوا باسمه مراراً –محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)- وقد جلس على كرسي الخلافة..

وإذا ببني العباس وأعوانهم قد أخلفوا أهل البيت الموعد .. وأجلسوا أبا العباس (السفاح) على عرش الخلافة وأحاطوها بقضبان من الإرهاب يحكمون الناس بالحديد والنار.

***

وأدرك أهل البيت أن الأمر قد خرج من أيديهم .. وأن أي تحرك سيكون مكشوفاً.

فأمراء بني العباس ليسوا كملوك بني أمية .. لأنهم دعاة أهل البيت وموضع سرهم ..يعرفون خواصهم وشيعتهم .. وأماكن تخفيهم وحيث ينزلون .. وكيف يتحركون..

لقد أصبحت معركة اليوم تتحدد معالمها .. أنها معركة مع أصدقاء وإخوان الأمس وأعداء اليوم لذا صارت كفة أهل البيت في هذه المعركة مغلوبة لا محالة.

فبمن يثقون؟ إذا خان الثقات أماناتهم.

وإلى من يأنسون؟ إذا صار أنيس الأمس يصقل مديته ليذبحهم.

لقد صاروا بالفعل:

غرباء .. في أوطانهم.

أسارى .. في دولة يحكمها إخوانهم.

***

وبدأت المرحلة الثانية لتوطيد أركان الخلافة العباسية..

فبعد أن تم القضاء على ملك بني أمية أقبل السيف العباسي .. لينال من كل من له أي صلة بأهل البيت .. وليت الأمر توقف عند هذا الحد .. بل صدرت الأوامر من قصر الخلافة العباسي .. ((من اتهمتموه فاقتلوه)).

وصار جلاوزة بني العباس يحكمون الناس بالحديد والنار .. يسفكون الدماء في كل مكان .. ولم يكتفوا بقتل أعدائهم .. فقد قتلوا حتى أصدقاءهم .. بتهمة ميلهم إلى آل علي بن أبي طالب (ع)..

فقتلوا أبا مسلم الخراساني، وأبا سلمة الخلال .. وهما من شيدَّ لبني العباس خلافتهم .. وحملاهم على رقاب الناس.

ثم تطاول ذلك السيف لينال حتى من بني العباس أنفسهم، ولم يتورعوا في قتل كل من يخافونه على ملكهم.

ولم يجد أولاد عبد الله بن الحسن من طريق ينجيهم من حد ذلك السيف الغاشم .. إلا الإستتار والتخفي فلم يعرف لهم أحدٌ طريقاً ..

(2)

بعد أن استقر حكم بني العباس .. وخضعت لهم البلاد والعباد .. أقبلت الوفود من جميع البلدان مباركة للخلفية الجديد خلافته.

وأقبل وفد أهل المدينة ومعهم وفد بني هاشم على رأسهم عبد الله بن الحسن وأخوه الحسن بن الحسن إلى أبي العباس السفاح .. لعلهم بلقائه والقرب منه يكفيهم شره ونقمته .. فاستقبلهم أبو العباس وأحسن إليهم .. وآثرهم على غيرهم.

فلما انصرف الناس من مجلسه استبقى عبد الله بن الحسن فحدثه طويلاً .. وأمر أن لا ينصرف عن العراق قبل أن يبقى ضيفاً عليه مع أخيه.

ولم تمض أيام حتى أرسل أبو العباس في طلب عبد الله بن الحسن.. فلما دخل عليه استقبله أبو العباس في ثوب واحد، وليس عليه شيء من لباس الملوك وقال له:

- ما رأى أحدٌ غيرك أمير المؤمنين وهو على هذا الحال ولكني إنما أعدك عماً ووالداً..

ثم جلسا يتحادثان طويلاً، ثم قام عبد الله يريد الإنصراف..

فقال له أبو العباس:

-ولكني أحب أنْ أحدثك عن شيء.

عبد الله: ما هو يا أمير المؤمنين؟.



أبو العباس: حدثني يا عبد الله عن ولديك محمد وإبراهيم .. ما خلّفهما ومامنعهما أن يفدا إلى أمير المؤمنين مع أهل بيتهما؟.

عبد الله: ما كان تخلفهما لشيء يكرهه أمير المؤمنين.

وصمت أبو العباس بعد ذلك.. ثم جال بفكره إلى أحداث الماضي وبيعته لمحمد بن عبد الله .. ثم ذكر بعض ما ذكر في الروايات من أن أبا جعفر يقتل محمداً وإبراهيم.

فرفع نظره إلى عبد الله وقال له:

– اسمع يا عبد الله .. لقد غيبتهما بعينك .. أما والله ليقتلن محمد على سلع ، وليقتلن إبراهيم على النهر العباب.

نكس عبد الله نظره إلى الأرض .. ولم يجب أبا العباس بشيء.. ثم استأذن للإنصراف فمضى إلى حال سبيله .. ولما أراد عبدالله الرجوع إلى المدينة لم يأذن له أبو العباس في الخروج من العراق، وجعل يرسل في طلبه المرة تلو الأخرى .. وفي كل مرة كان لا ينصرف عبد الله من مجلس أبي العباس السفاح حتى يسأله عن أمر ولديه..

***

كان الحسن المثلث يرى أخاه عبد الله وكثرة تضجره وضيقه كلما عاد من مجلس أبي العباس فأقبل عليه يوماً وقال له:

– ما لي أراك مكتئباً يا عبد الله؟!.

فقص عليه عبد الله ما جرى بينه وبين أبي العباس.

الحسن: هل أنت فاعل ما أقول لك؟.

عبد الله: ما هو؟.

الحسن: إذا سألك عنهما .. فقل عمهما الحسن أعلم الناس بهما.

عبد الله: وهل أنت محتمل ذلك لي؟

الحسن: نعم.

وما هي إلا أيام حتى كان رسول أبي العباس يبلغ عبد الله أن الخليفة يطلبه للحضور إلى مجلسه.

فلما دخل عليه .. رحّب بمجيئه وأجلسه إلى جواره..

أبو العباس: يا عبد الله إن رصافة أبي العباس تم بناؤها بالأنبار .. فادخل معي فانظرها.

وخرج موكب أبي العباس إلى الرصافة .. فلما دخلوها جعل عبد الله ينظر إلى تلك القصور الفخمة، والحدائق الجميلة الواسعة، وما يبهر العقول من المتاع الزائل .. فعلم أنه إنما تغيرت الوجوه والأسماء .. وأن ملوك بني



العباس سينحون نحو من قبلهم من ملوك بني أمية .. فيحيلون الخلافة الإسلامية إلى قيصرية أو كسروية.

فاراد عبد الله أن يزهد أبا العباس في هذه القصور فأنشأ يقول:

- ألم تر حوشباً..

وفجأة توقف عبد الله ولم يكمل .. لقد ذكر أن أبا العباس قد يسيء فهمه .. فيكون في ذلك حتفه وحتف أهله.

ولكن أبا العباس كان قد سمع الكلمة الأولى من البيت .. فالتفت إلى عبد الله قائلاً: أنفذه.

عبد الله: يا أمير المؤمنين .. ما أردت إلا خيراً.

أبو العباس: أقسمت عليك أن تنفذه.

فأقبل عبد الله ينشد:

ألم تر حوشباً أمسى يُبَنِّي بيوتاً نفعها لبني نفيلة

يؤمل أن يعمر ألف عام وأمر الله يطرق كل ليلة

فاحتملها أبو العباس وسكت..

فلما أراد عبدالله الإنصراف.. إلتفت إليه أبو العباس قائلاً:

- يا عبد الله ما خبر محمد وإبراهيم ألم يأتيا ليسلما على أمير المؤمنين؟.

عبد الله: يا أمير المؤمنين .. عمهما أعلم الناس بهما .. فاسأله عنهما.

فسكت أبو العباس، وانصرف عبد الله.

وفي تلك اللحظة أرسل أبو العباس من يأتيه بالحسن بن الحسن.

دخل الحسن مجلس الخليفة، فبادر إليه فقص عليه الأمر .. فلما انتهى تقدم إليه الحسن حتى صار واقفاً بين يديه.

الحسن: يا أمير المؤمنين.. أكلمك على هيبة الخلافة .. أو كما يكلم الرجل ابن عمه.

أبو العباس: بل كما يكلم الرجل ابن عمه، فإنك وأخاك عندي بكل منزلة.

الحسن: إني أعلم أن الذي هاج لك ذكرهما بعض ما قد بلغك عنهما .. فأنشدك الله هل تظن ان الله إن كان قد كتب في سابق علمه أن محمداً وإبراهيم يليا من هذا الأمر شيئاً، ثم أجلبت أهل السماوات والأرض بأجمعهم على أن يردوا شيئاً مما كتب الله لمحمد وإبراهيم أكانوا راديه؟

أبو العباس: لا والله ما هو كائن إلا ما كتب الله.

ثم تظاهر بالإقتناع والندم وقال للحسن:

– فلست بعارض لذكرهما بعد في مجلسي هذا ما بقيت إلا أن يهيجني شيء فأذكرهما.

***

عاد الحسن المثلث مع أخيه عبد الله بعد هذا اللقاء إلى المدينة وقد أدركا أن أبا العباس السفاح وأخاه أبا جعفر لن تطمئن نفساهما حتى ينالا من محمد وإبراهيم .. فأمرهما والدهما ساعة وصوله إلى المدينة بالخروج من المدينة والتخفي .. وبدءا رحلةً من التشرد والخوف..

ولم تمض بضعة أشهر حتى وصل رسول الخليفة يطرق أبواب آل الحسن..

فلما دخل على عبد الله بن الحسن وضع بين يديه رسالة الخليفة .. وفتحها عبد الله فإذا فيها:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فأدرك عبد الله أن هناك من لا يكف عن الوشاية به وبولديه عند الخليفة..

فأخذ رقعة ودواة.. وكتب:

وكيف يريد ذاك وأنت منه بمنزلة النياط من الفؤاد

وكيف يريد ذاك وأنت منه وزندك حين يقدح من زناد

وكيف يريد ذاك وأنت منه وأنت لهاشم رأسٌ وهادي

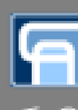
وطوى الرقعة وردها مع رسول الخليفة.

(3)

لم يكن بنو العباس ليشعروا بالاطمئنان وهم يعلمون أن محمد بن عبد الله حي يرزق..

فأنى لهم بالأمان وصاحب الحق الذي بايعوه بالأمس ثم نزوا على حقه ونكثوا بيعته .. لا زال يتنقل من بلد إلى بلد .. وقلوب الناس معلقة به؟.

كان والي المدينة في تلك الفترة هو زياد بن عبد الله الحارثي .. وكان كاتبه حفص بن عمر من أشد الناس



حباً لآل محمد .. فكان لا يعقد زياد أمراً فيه إضرار بآل محمد إلا ودفعه حفص عنه بلطافة القول والحجة والإقناع.

وفي عام 136هجرية أقبلت الأخبار من العراق بأن أبا جعفر سيحج بالناس في هذا الموسم .. ولما كان حفص بن عمر يعرف شدته وقسوته وإصراره على طلب محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن .. أرسل إلى عبد الله يخبره الخبر.

فلما وصلت رسالته إلى عبد الله أرسل في طلب ولديه.

فلما دخلا عليه حدثهما قائلاً:

– إن أبا جعفر سيحج بالناس في هذا العام .. وأنتما تعلمان من أمره ما أعلم .. ولست آمن عليكما البقاء في المدينة .. ولا ما حولها فإن الرجل شديد في أمركما.

محمد: فما ترى أن نفعل يا أبي .. فقد كرهنا كثرة الإنتقال والتخفي.

عبد الله: صبراً يا بني .. فلك في عمك زيد وولده قدوة.

إبراهيم: فأي البلاد ترى يا أبي أنها لا تنالها يد هذا الطاغية.

عبد الله: أرى أن تتوجها إلى اليمن .. فإني أظنه لا يقدر عليكما هناك.

وحينا تجهزا على الفور للسفر وودّعا أباهما وأهلهما وداع من لا يدري أيكون له بأهله بعد هذا السفر لقاء؟.. أم أن هذا هو اللقاء الأخير؟

***

ولم تمض أيام على سفرهما حتى أقبل موكب ولي العهد والناس يسيرون معه .. فلما اقترب من المدينة نزل بالربذة .. فخرج إليه أهل المدينة يستقبلونه. وخرج معهم أهل البيت (ع) .. فقسم في الناس أموالاً كثيرة .. وأمر من جاءه من آل أبي طالب بعدم الإنصراف، فلما انصرف الناس .. جعل يسألهم عن محمد و إبراهيم .. فلم يجد عندهم جواباً.

***

كان أبو جعفر يظهر الإهتمام بأمر محمد وإبراهيم .. فلما دخل المدينة .. وجلس واليها زياد بن عبد الله الحارثي بين يديه قال له أبو جعفر:

– يا زياد .. اخرج فاشترِ ما استطعت من عبيد أهل المدينة.

زياد: سمعاً وطاعة يا مولاي.

فلما أقبل زياد بن عبد الله بالعبيد وازدحم بهم دار الأمارة قال لهم أبو جعفر:

– أَمْنِكم من لا يعرف محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم؟



فأجابه الجميع: بل نعرفهما.

أبو جعفر: فأنا أعطي كل واحد منكم البعير والبعيرين .. فانتشروا في المدينة وما جاورها .. فمن وجد محمداً وإبراهيم في مكان فليأتني بخبرهما .. وله عندي ما يسره.

فانطلقوا على الفور كل يريد أن يظفر بالجائزة.. وبقي زياد الحارثي عند أبي جعفر.

زياد: وماذا يهمك من أمرهما يا مولاي؟ أنا آتيك بهما.

أبو جعفر: إذا فابق على عملك في المدينة.

(4)

بقي أبو جعفر في المدينة إلى بداية عام 137هجرية .. لعله يظفر بولدي عبد الله بن الحسن، ولكن الله أراد ما لا يريد أبو جعفر فقد أتته الأخبار بوفاة أخيه السفاح.. فانشغل عن البحث عنهما بجمع الناس وعقد البيعة لنفسه..

ثم سارع في المسير إلى بغداد .. بعد أن أتته الأخبار أن عمه عبد الله بن علي قد أخذ البيعة لنفسه من أهل الشام.

وبعد حروب طويلة ومعارك دامية بينهما دانت له البلاد واعتلى عرش الخلافة.. وأصبح فؤاد أبي جعفر فارغاً من كل شيء إلا من أمر كان يُعكّر عليه صفوه .. وينغص عليه راحته.

ففي كل يوم جديد كان يأتيه جاسوس من جواسيسه بخبر جديد عن محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم .. فخبر يخوفه وخبر يطمئنه..

وبينما أبو جعفر على هذا الحال .. إذ وصل وفد أهل خراسان إلى بغداد يريدون لقاءه.

فأمر بإدخالهم عليه .. فأحسن استقبالهم .. وجعل يكثر النظر إلى وجوههم .. وكأنه يبحث عن رجل يعرفه قد التبس عليه بينهم.

فلما أرادوا الإنصراف .. أذن لهم.. فلما بلغوا باب إيوانه صاح بأحدهم:

- أنت يا رجل .. ابق لا تذهب معهم.

توقف الجميع .. لم يعرف أحد منهم من هو المقصود..

فأشار أبو جعفر إلى رجل منهم حسن الوجه .. ظاهر الهيبة وقال له: أقصدك أنت.

فعاد الرجل وجلس بين يدي أبي جعفر.. وانصرف أصحابه.

أبو جعفر: ما إسمك يا رجل؟.

الرجل: إسمي عقبة بن مسلم بن نافع .. من جند أمير المؤمنين وخدمه.

أبو جعفر: ممن أنت؟ ..



عقبة: من الأزد .. ثم من بني هناءة.

أبو جعفر: إني لأرى لك هيئة وموضعاً .. وإني أريدك لأمر أنا به معني .. لم أزل أرتاد له رجلاً عسى أن تكون هو .. إن كفيتنيه رفعتك.

عقبة: أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين فيّ..

أبو جعفر: فاخف شخصك واستر أمرك.. وأتني

في يوم كذا.. في وقت كذا.

فانصرف الرجل .. ثم أتى في الموعد الذي أمره أبو جعفر بالدخول عليه فيه بينما كان أبو جعفر ينتظر مجيئه.. فلما دخل عليه قال له أبو جعفر:

– اسمع يا رجل .. إن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً لملكنا.. واغتيالاً لنا.. ولهم شيعة في خراسان في قرية كذا .. يكاتبونهم .. ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم.. فاخرج بأكسية وألطاف حتى تأتيهم متنكراً بكتاب تكتبه على أهل القرية .. ثم تسير ناحيتهم .. فإن كانوا قد نزعوا عن رأيهم فأحبب والله بهم وأقرب..وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك .. وكنت على حذر واحتراس منهم. .واعلم أنك ستلقى عبد الله بن الحسن متقشفاً متخشعاً .. فإن جابهك –وهو فاعل– فاصبر وعاوده .. فإن عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته .. فإذا ظهر لك ما في قلبه .. فعجل إليّ

ففهم عقبة مهمته وانطلق نحو المدينة..

***

كان العام 138هجرية قد دخل عندما وصل عقبة إلى المدينة..

فأقبل إلى دار عبد الله بن الحسن .. فدخل عليه .. فلما رآه عبد الله أنكره .. وكان كلما زاد الرجل تقرباً من عبد الله .. زاد عبد الله نفوراً منه .. فجعل عقبة لا ييأس ولا يمل..

فلما رأى عبد الله إصراره قبل منه صلته .. وأحسن إليه وقربه نحوه .. فأطال اللبث في المدينة..وتكنى بأبي عبد الله وأظهر التقوى والتبتل.

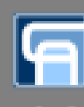
وفي أحد الأيام دخل عليه عبد الله بن الحسن فقال له: يا أبا عبد الله أليس لك فراغ فتعلم هذين الصبيين الشعر..

عقبة: ولمن يكونان؟

عبد الله بن الحسن: هما لولدي محمد .. فهذا علي .. وهذا الحسن.

عقبة: مُرني بما شئت يا أبا محمد .. ولكن يا أبا محمد قد طال انتظاري .. فمتى يخرج ولدك محمد.

عبد الله: صبرا يا أبا عبد الله .. فإنه إن شاء الله يخرج وقت كذا وكذا.



كان عبد الله بن الحسن قد اطمئن إلى هذا الرجل .. فقد أظهر عقبة من التنسك ما لا يفعله إلا صادق .. أو من بلغ مبلغاً من المكر، فلم يُر في نهاره مفطراً قط.. يقوم الليل ويصوم النهار ويشغل كل وقته بالذكر وقراءة القرآن، فنال بذلك ثقة آل الحسن .. حتى صار شريكهم في مطعمهم ومشربهم وسرهم وعلانيتهم..

في حين كان موسى بن عبد الله ينظر إلى عقبة بعين الشك..

ولما كان موسى من أشد الناس إلتصاقاً بأبيه فقد كان عقبة يتقرب إليه لعلمه بأن أباه لا يكتم عنه سراً لفرط محبته له.

***

وفي أحد الأيام.. أقبل عقبة يلاطف موسى.. حتى ظن عقبة أن موسى قد اغتر به..

عقبة: يا موسى إن أخاك محمداً الإمام يكثر الغياب .. ولا يأتينا إلا من حين إلى آخر .. أما فيكم من يعرف أين يغيب كل هذا الوقت.

موسى: وما شأنك يا رجل بهذا الأمر؟.

عقبة: لا شيء يا مولاي .. ولكن أخاف أن يناله أذى وهو بعيد عنكم.

ازدادت ريبة موسى في عقبة بن مسلم .. فأقبل موسى على أبيه وقال له:

– اعلم يا أبي والله إنه عين .. فأْمرُهْ بالشخوص .. فهو الذي لا يخفي عن أبي جعفر شيئاً من أمرنا.

فأمر عبد الله بن الحسن عقبة بن مسلم المتسمى بأبي عبد الله بالشخوص .. إرضاء لولده موسى وثقة برأيه ..

وعاد عقبة إلى أبي جعفر بأخبار آل الحسن .. فأكرمه وأحسن إليه ورفع مقامه..

ثم أرسل أبو جعفر في طلب الفضل بن صالح بن علي..فلما حضر بين يديه قال له أبو جعفر:

– اسمع يا فضل .. هذا موسم الحج قد أقبل .. وقد جعلتك أميراً على الحج لهذا العام .. فاجلس إلى عقبة ليقص عليك ما رآه عند آل الحسن.

فجلس الفضل إلى عقبة وجعل يقص عليه كل ما رآه أو سمعه ولم يخف عليه شيئاً .. فلما أكمل حديثه قال أبو جعفر مخاطباً الفضل:

– إن وقعت عيناك على محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن فلا يفارقانك .. وإن لم ترهما فلا تسأل عنهما..

واستعد الفضل بعد هذه الوصية للتوجه إلى المدينة .. وحين توجه إلى المدينة وأشرف على دخولها كان أهل المدينة قد علموا بمجيئه فخرجوا لاستقباله، وفيهم عبد الله بن الحسن وسائر بني الحسن إلا محمداً وإبراهيم ..



فبقي الفضل لا يسأل عبد الله عن شيء حتى أحرم للحج.

الفضل: ما منع ابنيك أن يلقياني مع أهلهما؟

عبد الله: ما منعهما من ذلك لا ريبة ولا سوء .. ولكنهما مهتمان بالصيد واتباعه .. لا يشهدان مع أهلهما خيراً ولا شراً..

فسكت الفضل عن عبد الله .. وتقدم ليجلس في مكان مرتفع قد أعد له .. فأمر عبد الله أحد رعاة أغنامه أن يحلب حليباً في إناء كبير ويخلطه بالعسل ويقدمه للفضل على دكته..

فلما أقبل الراعي بالإناء على الفضل ظن الفضل أن عبد الله يريد بذلك قتله .. فقال للراعي– وقد اشتد غضبه: إليك يا ماص بظر أمه!! .. فأدبر الراعي خائفاً فزعاً..

فلما رأى عبد الله بن الحسن ما فعله الفضل، حمل الإناء من الراعي .. وأقبل به إلى الفضل– وكان عبد الله من أشد الناس رقة ولطافة فوضعه بين يدي الفضل .. فلم يجد أمامه إلا أن يشرب منه استحياءً من عبد الله بن الحسن ..

***

دخل الفضل على والي المدينة زياد بن عبد الله الحارثي ولما جلس إلى جواره قال له:

– ماذا فعلت بما تكفلت لأمير المؤمنين القيام به..

زياد: كما ترى يا مولاي .. فاسأل أهل المدينة عن سيري فيهم.. تعرف أني أشد الناس حرصاً على صلاح البلاد والعباد.

الفضل: ما عن هذا سألتك .. إنما أقصد محمداً وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن.

زياد: إني لا آلو جهداً في تتبع أمرهما ..ولو سنحت لي فرصة لكانوا في قبضة أمير المؤمنين منذ زمن.

الفضل: فاحرص علىهذا .. فإن أمير المؤمنين قلق بشأنهما.

ولما خرج زياد بن عبد الله من مجلس القضاء .. تقدم نحو الفضل رجل يسمى عبد العزيز بن سعد فقال للفضل:

– يا مولاي إن لزياد كاتباً يسمى عمر بن حفص.. شديد الولاء لآل أبي طالب.. فلا يعزم زياد على أمر إلا ويرده عنه..

الفضل: فاكتب بذلك إلىأمير المؤمنين.

فكتب عبد العزيز بذلك إلى أبي جعفر المنصور .. فلم تمض مدة من الزمن حتى كان رسول أبي جعفر يطرق باب زياد .. يأمره أن يرسل معه كاتبه عمر بن حفص مكبلاً بالحديد، فلم يجد زياد مفراً من الاستجابة لهذا الأمر.



وبعث زياد برسالة إلى عيسى بن علي وعبد الله بن الربيع الحارثي يرجوهما أن لا يتركا جهداً في تخليص عمر بن حفص من قبضة أبي جعفر.. ففعلا ذلك حتى أخرجاه من سجنه..

(5)

كان أبو جعفر قد ضيق على آل الحسن .. فلم يتمكن شيعتهم من الوصول إليهم .. وحصرهم في معائشهم حتى بلغت بهم الحاجة كل مبلغ .. وكان يرسل من يأتيه بأخبارهم الرسول تلو الرسول.

وها هو أحدهم يسرع نحو قصر الخلافة بعد أن أنهى مهمته يحمل إلى أبي جعفر ما سره من أخبار آل الحسن بالمدينة.

الرسول: يا مولاي.. لقد صار أحدهم لا يجد ما يسد جوعه.. ولا ما يستر عورة عياله.

أبو جعفر: إذاً أظفر بمحمد وإبراهيم هذا العام.. أين أمين بيت المال؟

فلما دخل عليه قال له:

– انظر إلى آل أبي طالب كم يكون عددهم في الديوان .. ثم أعد لكل فردٍ منهم مبلغ كذا وكذا من المال. وكذا وكذا من الكساء.

فلما اعد له ذلك أمر بإحضار رجل من خيار رجاله وأشدهم وفاءً له، فسلم إليه تلك الأموال ثم قال له:

– اسمع يا هذا .. أخرج بهذه الأموال فأقبل على المدينة.. ولا تدخلها ولكن ابق خارجها.. فإذا سألك الناس لأي شيء أتيت.. فقل جئت لأقسم صلة أمير المؤمنين في آل أبي طالب.. ولا أعطي أحداً شيئاً إلا يداً بيد.. فمن أحب منهم أن يأخذ نصيبه فليخرج إلي.. فإذا خرجوا إليك أعطيت كل من أتاك .. حتى إذا أقبل عليك محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم أخذتهم إليك.. وذبحتهم من ليلتك.

فانطلق الرجل نحو المدينة حاملاً معه تلك الأموال وهو حريص أشد الحرص على تنفيذ وصية أبي جعفر..

***

كانت أحوال بني الحسن تشتد كل يوم سوءاً.. فقد أزراهم الفقر.. وضاقت بهم السبل.. فلما أقبل رسول أبي جعفر إليهم.. ألجأتهم الظروف إلى الخروج إليه.. فكان من أتاه أعظم له العطاء.. فيعود إلى داره.. فيطمع من لم يخرج..

وأقبل عبد الله على ولديه محمد وإبراهيم .. فرأى سوء حالهم وشدة حاجتهم وكثرة عيالهم .. فبكى واشتد حزنه..

إبراهيم: أبي.. أترى أن نخرج لأخذ عطائنا من هذا الرجل؟

عبد الله: والله يا بني .. إنك لو أقبلت عليه ما رجعت إلى دارك .. ولسارع إلى ذبحك فإنما هذا طُعْم أراد به

قتلكما.

محمد: أتعني يا أبي أن أبا جعفر إنما قصد بهذا كله الوصول إلينا.

عبد الله: نعم يا بني.. فوالله لقد بلغني عن هذا الفاسق الذي أرسله أبو جعفر أنه وقف بالقادسية وجعل يحد مديته أمام بعض الناس.. ويقول بهذا أذبح ابني عبد الله بن الحسن.

محمد: لنا الله يا أبي .. يكفينا شر هذا ويرزقنا من عنده.

***

وطال انتظار ذلك الرجل ولم يبق بين يديه إلا نصيب محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن .. فلما طال انتظاره أتته رسل أبي جعفر تأمره بالعودة.

وعاد إلى أبي جعفر يجر أذيال الخيبة بعد أن خاب سعيه وذهب رجاؤه فيما أمّل..

فاشتد غضب أبي جعفر وضاقت عليه دنياه .. فأضمر في نفسه أن يحج في ذلك العام ويضع لهذا الأمر حداً..

***

كان محمد وإبراهيم قد أقبلا على أبيهما قبل موسم الحج بأيام..

محمد: أبي لقد طال تخفينا وقد اشتقنا إلى الحج في هذا العام..

عبد الله: يا بني لقد بلغني أن أبا جعفر سيحج بالناس في هذا العام وأخاف أن تقع عينه عليكما .. فوالله لا أرجو لكما نجاة بعدها.

إبراهيم: يا أبي .. إنما الأعمار بيد الله .. نتنكر إن شاء الله فلا يعرفنا عيونه..

عبد الله: لقد أخبرتكما يا إبراهيم بما أرى .. ولكما ما رأيتما.

فخرجا من عند أبيهما وقد نويا الحج .. فأخفيا أمرهما عن جميع الناس حتى عن أبيهما وتنكرا وأحرما للحج في ذلك العام ..

***

وما إن أطلت الأشهر الحرم لعام 140هـ حتى خرج أبو جعفر بنفسه للحج بالناس.

وأخذ أبو جعفر يعد للأمر قبل وصوله إلى المدينة .. فحمل معه في رِكِبْه عقبة بن مسلم..

فلما اقترب من المدينة وعلم بخروج الناس لاستقباله ومعهم عبد الله بن الحسن، أمر بإحضار عقبة بن سلم..

أبو جعفر: اسمع يا عقبة .. إني إذا صرت بمكان كذا لقيني بنو الحسن .. فيهم عبد الله .. فأنا مبجله ورافع مجلسه وداع بالغداء .. فإذا فرغنا من الطعام .. فلحظتك فامثل بين يديه قائماً.

فلما نزل أبو جعفر بالقرب من المدينة أتى أهل المدينة لاستقباله.. وخص عبد الله بن الحسن بالإكرام..

فدعا بالغداء.. فلما أكمل عبد الله طعامه، مَثَلَ عقبة بن مسلم بين يديه.. فشاح عبد الله ببصره عنه.. وكأنه لم يره..

فأقبل عليه عقبة حتى غمزه بإبهامه في ظهره .. فرفع عبد الله نظره إلى عقبة بن مسلم .. واستشعر عبد الله ما يدبر له ولكن لم يكن لمثله أن يهاب الموت..

وأقبل عبد الله يحدث أبا جعفر .. وأبو جعفر يظهر التشاغل ببعض رسائل بين يديه .. ويرقب ما يحدث لعله يرى من عبد الله ذلة .. فكم تمنى أن يذله..

وبينما هم على مثل هذا الحال .. تكلم محمد بن أبي جعفر الملقب بالمهدي .. فلحَن في كلامه لحناً شديداً.. فقال عبد الله:

– يا أمير المؤمنين .. ألا تأمر بهذا من يعدل لسانه؟ فإنه يغفل كما تغفل الأَمَة ... فلم يلتفت إليه أبو جعفر..

وبعد برهة من الزمن حاول فيها أبو جعفر أن يكظم غيظه ولا يظهر ضعفه .. فقد ذهل من قوة عبد الله بن الحسن وصلابته .. فلم يتغير له لون .. لقد كان ينتظر أن يرتمي بين قدميه خوفاً وفرقاً.

أبو جعفر: يا أبا محمد .. أرى محمداً وإبراهيم قد استوحشا مني .. وإني لأحب أن يأنسا بي وأن يأتياني فأصِلْهما وأخلطهما بنفسي ..

فأطرق عبد الله طويلاً .. ثم رفع رأسه وقال:

– وحقك يا أمير المؤمنين، فما لي بهما ولا بموضعهما من البلاد علم، ولقد خرجا من يدي.

أبو جعفر– وقد ظهرت ملامح الغضب على وجهه:

لا تفعل يا أبا محمد، أكتب إليهما وإلى من يوصل كتابك إليهما.

عبد الله: والله إني لا أعرف مكانهما.

أبو جعفر– وقد اشتد غضبه على عبد الله: لا تفعل يا أبا محمد .. لا تفعل يا أبا محمد .. لتأتيني به.

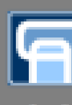
عرف عبد الله بن الحسن الجد من كلام أبي جعفر.. وأدرك أنه قد ذهب وقت المهادنة.. فنهض من مكانه ثم قال:

– اسمع يا هذا والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه.

زمجر أبو جعفر واشتد غضبه.. بينما عبد الله ثابت في مكانه لم تهتز له شعرة.. وبدا عليه من الصلابة ما أذهل الجميع.. مما جعل أبا حعفر ينادي قائد الجند:

يا ربيع قم به إلى السجن.

وأُخذ عبد الله بن الحسن وأودع السجن، ولم ترع له حرمة ولا قرابة..



أرادوا منه ولده، ففداه بنفسه، فلا غرابة، فقد رأى في تسليم قرة عينه عين الخيانة..

كيف؟!.. كيف يسلم شبله للموت.. وهو من خيار أهل زمانه..

كيف يستجيز إعانة الظالمين على سفك دماء أولاده وفلذات أكباده؟!

الفصل الرابع

(1)

كان عبد الله بن الحسن فاضلاً عالماً .. بلغ من الفضل والعلم والأخلاق درجة رفيعة حتى أسماه أهل المدينة بعبد الله الكامل .. لما رأوا فيه من صفات أهل الفضل والتقوى ..

فصار لا يعرف بين أهل المدينة وغيرهم إلا بهذا الاسم..

ولذلك ضاقت نفوس أهل المدينة وبني هاشم ذرعاً بما فعله أبو جعفر من سجن عبد الله وتعمد إهانته.. وأضمروا لأبي جعفر الكراهية وتوعدوه بالشر قبل الأشرار ..

فقد اجتمع أحد قواده –ويسمى خالد بن حسان، واشتهر باسم أبي العساكر– مع جماعة من الناس .. وصاروا يستعرضون الأحداث ويتبادلون الكلام ويتوعدون الخليفة بالشر .. حتى قال رجل منهم يسمى عبدويه –وقد أخذ حربة بيده: إني أريد أن أوجر أبا جعفر هذه الحربة بين الصفا والمروة.

خالد بن حسان: إني أمير ألف رجل.. ليس فيهم من أشك في طاعته لي .. فتعال نرسل إلى أبي محمد في سجنه فنشاوره في الأمر.. فإذا أقرنا على ذلك فعلنا...

فلما بلغ الرسول عبد الله بن الحسن قال له: أبلغهم أن يكفوا عن ذلك.. فهم في موضع عظيم ولا أراهم أن يفعلوا ذلك.

فلما يئسوا من استجابة عبد الله جعلوا يبحثون عن محمد بن عبدالله لعلهم يجدون عنده رأياً أو مخرجاً..

فدخلوا على الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية في مكة.. وكان مستتراً عن الناس.. ودخل معهم الأشتر بن محمد بن عبد الله .. فاستشاروه في أمر القضاء على أبي جعفر..

الأشتر: أنا أكفيكموه.

الإمام: لا والله لا أقتله أبداً غيلة حتى أدعوه.

فانتقض أمرهم وتفرقوا .. وسرت الأخبار إلى أبي جعفر المنصور .. فتتبع أنصار خالد بن حسان وأعوانه فقتهلم.. وأما خالد فقد أخفاه آل الحسن .. وحملوه إلى شيعة لهم في خراسان..

وأُخِذَ أحد أولئك الذين حضروا اجتماع القائد مع محمد بن عبد الله .. فأدخل على أبي جعفر ..

أبو جعفر: أخبرني عنك وعن عبدويه والعطاردي .. ماذا أردتم أن تفعلوا بمكة؟

الرجل: أردنا قتلك وإغتيالك.

أبو جعفر: فما منعكم؟!.

الرجل: ما منعنا من ذلك إلا عبد الله بن الحسن.

***

بعد أن أمر أبو جعفر بتتبع أنصار خالد بن حسان وقتلهم أينما وجدوا .. أمسى ليلته مهموماً ... واستولى عليه الشك والوسواس فلم يعرف النوم لعينه طريقاً..

وفي ساعة من ساعة الليل المتأخرة إلتفت إلى الربيع وقال له:

- يا ربيع .. ألم يعدني زياد بن عبد الله بأن يكفيني أمر محمد وإبراهيم.

الربيع: بلى يا مولاي .. ولكن ذلك كان قبل سنوات.

أبو جعفر: أرسل إليه فليحضر الساعة.

الربيع: إن الوقت قد أزف .. فهلا تركته إلى أن يأتي الصباح.

أبو جعفر: لا .. بل الليلة والآن أيها الأحمق.

الربيع: أمر مولاي .. أمر مولاي.

أسرع الجنود إلى دار كان قد تحول إليها زياد بن عبد الله قبل وصول أبي جعفر .. وجعلوا يطرقون الباب بكل قوة .. ولكن أحداً لم يجبهم ..

كان زياد يسمع طرقهم فعلم أنهم رسل أبي جعفر.. وأدرك أنه لا يطلبه في مثل هذا الوقت لأمر فيه خير.. فأمر من في الدار ألا يفتحوا الباب أو يردوا على الجنود بجواب..

ورجع الجند إلى الربيع .. فلما دخلوا عليه ..سألهم:

- أين زياد؟ .. ألم يأت معكم؟

الجند: لم نجد أحداً في الدار.

الربيع: إذا كان تحت الأرض فأخرجوه .. إن الخليفة لن يقبل بهذا .. هيا انصرفوا.

فرجع الجند إلى دار زياد .. فجعلوا يضربون الباب بكل قوة .. ثم قرروا أن يقتلعوا الباب .. فما كان من زياد بن عبد الله إلا أن خرج إليهم وهو لا يشك أنه مقتول تلك الليلة .. فما خرج إلا وقد تغسّل وتحنّط ولبس كفنه..

***

كان زياد بن عبد الله الحارثي قد عرف الكثير عن فضائل أهل البيت (ع) .. وأضمر في نفسه أن لا يكون عوناً لأعدائهم ولا يشارك في سفك دمائهم .. فقد سمع الكثير عنهم من كاتبه عمر بن حفص .. ولقد

جالس عبد الله بن الحسن .. فلم ير في زمانه خيراً منه..

لم يتركه الجند يمشي .. بل جعلوا يحملونه مهرولين نحو قصر الخليفة .. لقد كان أمر الخليفة لا يحتمل التأخير..

كان الربيع ينتظرهم على باب مقصورة الخليفة .. يحسب الدقائق والثواني .. فلما نظر إلى زياد قال له:

– ويحك يا زياد .. ماذا فعلت بنا وبنفسك في هذه الليلة؟

زياد: ألا تعرف يا قائد الجند لأي شيء طلبني الخليفة؟!.

قائد الجند: عظم الله أجرك في نفسك يا زياد .. والله ما طلب الخليفة أحداً على مثل ما طلبك وخرج من مجلسه إلا مقتولاً.

زياد: إنا لله وإنا إليه راجعون .. عند الله أحتسب نفسي.

جعل زياد يراجع أعماله في الفترة الماضية .. كان يقول في نفسه: والله لا أبالي أن يكون قتلي ثمن محبتي لمحمد وآل محمد .. الحمد لله الذي عرفني حقهم قبل أن أرحل عن هذه الدنيا.

ثم أمسك الربيع بيد زياد .. وجعل يجره وراءه حتى كشف الستار .. فأدخل زياد ووقف الربيع خلف ذلك الستار..

جعل زياد يتلفت ويدور بنظره هنا وهناك .. فإذا شَمع في نواحي القبة وهي تزهر .. ووصيف قائم في ناحيتها وأبو جعفر محتب بحبائل سيفه .. على بساط ليس تحته وسادة ولا مصلى .. منكس رأسه .. ينقر بجرزٍ في يده..

اقترب الربيع من زياد وهمس في أذنه: إنه منذ صلى العتمة على مثل هذا الحال إلى هذه الساعة.

جعل زياد ينظر إلى أبي جعفر .. وهو على تلك الحال.. وأبو جعفر لا يلتفت إليه .. كان الوقت يمر وأبو جعفر غارق في التفكير لا يشعر بمن حوله ..

وقبيل طلوع الفجر رفع أبو جعفر رأسه ونظر إلى زياد ثم صرخ في وجهه قائلاً:

– يا ابن الفاعلة .. أين محمد وإبراهيم؟

ثم عاد إلى وضعه الأول.. فصمت طويلاً.. وزياد لا يجيبه.

ثم رفع رأسه والتفت إليه في غضب قائلاً:

– يا ابن الفاعلة.. أين محمد وإبراهيم؟ قتلني الله إن لم أقتلك.

زياد: اسمع مني ودعني أكلمك .. أنت نفرتهما عنك .. بعثت رسولاً بالمال الذي أمرت بقسمته على بني هاشم .. فنزل القادسية ثم أخرج سكيناً يحده .. وقال: بعثني أمير المؤمنين لأذبح محمداً وإبراهيم .. فجاءتهما بذلك الأخبار فهربا.

أبو جعفر: إذاً فانصرف يا زياد.

(2)

تملك اليأس قلب أبي جعفر من أن يصل إلى محمد وإبراهيم .. فأمر بالإستعداد للرحيل..

وخرج أبو جعفر من المدينة متوجهاً إلى العراق .. وقد غاظه أمر اختفاء محمد وإبراهيم .. وأصدر أوامره بتقييد عبد الله بن الحسن وعدم إخراجه من السجن..

كان أبو جعفر يؤمل أن يكون عبد الله بن الحسن طُعْماً يجلب به أولاده .. فقد وضع الجواسيس حول السجن لعل محمداً وإبراهيم يأتيان لزيارة أبيهما..

ثم جعل يرسل الرسول تلو الرسول إلى زياد يحثه على تتبع محمد وإبراهيم..

ولكن زياداً كان قد تملك قلبه وروحه حب محمد وآل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) ..

ولقد سعى مراراً للتقرب من محمد وإبراهيم .. فجعل يراسلهما من خلال كاتبه عمر بن حفص ويلح في لقائهما .. فلما اطمأن محمد إلى وفاء زياد بن عبد الله وحسن نيته دخل على أخيه إبراهيم بن عبد الله فقال له:

- يا أخي .. لقد طلب مني هذا الرجل لقاءه .. وألح عليَّ في ذلك .. فتنكَّرْ وادخل المدينة .. وأقبل على عمر بن حفص وادخل معه على هذا الرجل.

إبراهيم: أتقصد أمير المدينة زياد بن عبد الله؟!

محمد: نعم يا أخي .. فإني أرجو أن يصلحه الله بك ..

إبراهيم: ألا تخاف من خيانته.

محمد: لا أظن ذلك يحدث منه .. فقد أخبرني عمر بن حفص من أفعاله ما يجعل النفس تأنس إليه ولكن خذ حذرك منه.

وعلى الفور استجاب إبراهيم لرأي أخيه .. فاغتسل وتحنط ولبس تحت ثيابه درعاً من الحديد .. وأقبل نحو دار عمر بن حفص .. فبقي عنده حتى خلا مجلس الأمير .. ثم دخل عليه.

زياد: مرحباً بابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. كم تمنيت لقاءك.

إبراهيم: معذرة أيها الأمير .. فأنت أعلم الناس بما نحن فيه من الخوف .. فو الله يا زياد إن أحدنا يمسي فلا يظن أنه يصبحُ عليه حتى يقتل .. ويصبح فلا يظن أنه يمسي إلا وقد أخذ .. فقد ضيق علينا أبو جعفر السبل بكثرة عيونه وجواسيسه.

زياد: أعلم ذلك يا ابن رسول الله، ولكن لا بد أن يجعل الله لكم بعد الضيق فرجاً ومخرجاً.

وتقدم زياد نحو إبراهيم .. ووضع يده على كتف إبراهيم .. فأحس بالدرع من تحت الثياب.



زياد– وهو يثبت يده على الدرع: يا أبا إسحاق كأنك اتهمتني .. ذلك والله الذي لا إله إلا هو لا ينالك مني أبداً .. ولكن هذه رسائل أبي جعفر يأمرني فيها بطلبكم .. وأنا أعلم أن قلبه قد امتلأ مني ريبة وشكاً لتهاوني في هذا الأمر .. وأعلم أنه لا شك آخذ لي بتلك الشكوك والظنون .. وإني أرجو أن أجعل من شكه يقيناً وأملأ قلبه غيظاً.

إبراهيم: فما تريد أن تفعل يا زياد؟

زياد: أبلغ أخاك محمداً أني أطلب منه أن يلقاني في أي وقت شاء في سوق المدينة .. لأحدثه على مرأى ومسمع من الناس.

إبراهيم: أخاف عليك غضب أبي جعفر .. فإنه إن فعلت ذلك سفك دمك.

زياد: لا أبالي بغضبه مع رضاء الله ورسوله.

إبراهيم: أشاور أخي في ذلك ويأتيك الجواب مع عمر بن حفص.

وانصرف إبراهيم إلى أخيه محمد وهو حائر في أمر زياد.

فلما قدم على أخيه بصحبة عمر بن حفص وأعلماه الخبر .. فكر الإمام طويلاً.. ثم نظر إليهما وقال:

– والله لا أرد للأمير طلبه .. فإن وفّى لنا وأراد لنا خيراً وفقه الله .. وإن أضمر لنا شراً وقانا الله منه .. أخبره يا عمر أني ألقاه يوم اجتماع الناس في سوق المدينة.

وبقي الأمير ينتظر ذلك الموعد في شوق ولهفة .. فلما أتى موعد اللقاء خرج الأمير في حاشيته وأعوانه .. وأقبل يسير في الناس حتى وقف على ربوة مرتفعة يشهد عليها كل أهل السوق وجعل يتلفت إلى اليمين والشمال .. ينتظر من أي جهة يظهر محمد بن عبد الله .. لم يكن ليداخله شك في أن الإمام محمد بن عبدالله يمكن أن يخلف موعداً وعده أياه..

وما هي إلا لحظات حتى أقبل محمد بن عبد الله كاشفاً عن وجهه .. راكباً فرسه .. قد تدلى سيفه على بطن فرسه في أبهى صورة .. وأجمل هيئة .. قد ألبسه الله تاجاً من النور .. وأفاض عليه هيبة منه وعزاً .. فالتفت كل من في السوق ينظرون إليه .. كأنما هو نسخة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع).

فتقدم زياد لمصافحته ثم توجه إلىالناس .. والتفت إلى محمد بن عبد الله وقال له: إلحق بأي بلاد شئت..

فهتف الناس: المهدي .. المهدي..

فتوارى محمد واختفى وسط أصحابه وخرج من السوق، والناس يهتفون: المهدي .. المهدي.

(3)

علم الخاص والعام بما فعله زياد .. وتسابقت عيون أبي جعفر تحمل إليه الخبر.. فلما طرق أول الواصلين باب قصره أسرع أبو جعفر في استقباله..



أبو جعفر: أدخلوا رسول زياد بن عبد الله الحارثي.

فلما دخل عليه لم يمكنه من السلام حتى بادره بالسؤال قائلاً:

- أحملت إليّ محمداً وإبراهيم .. أم جئتني بخبرهما؟

الرجل: لا هذا ولا ذاك يا مولاي .. بل جئتك أخبرك بأن زياداً قد نقض عهدك وداهن عدوك..

وأخذ الرجل يحكي له ما حدث..

كان أبو جعفر لا يكاد يصدق ما يسمع ..كان يقول في نفسه .. إذا استطاع أهل هذا البيت إفساد أمرائي .. ومحط ثقتي .. فكيف يمكن أن يكونوا قد فعلوا في قلوب الناس؟ ..

وكأن أبا جعفر لا يعلم أن حب أهل البيت هو رأس الإيمان .. وبغضهم عين النفاق .. وكأنه نسي يوم أن كان من دعاتهم.. وجهل -أو تجاهل- يوم كان يتزلف إلى قلبوب الناس بإظهار محبتهم.

وأخيراً أفاق أبو جعفر ليقول للرجل: انصرف .. بعد أن أمر له بصلة من بيت المال..

وجال أبو جعفر بفكره يستعرض ولاته وأصحاب ثقته .. لعله يجد فيهم من يخلف زياداً في ولايته .. وبينما هو على هذه الحال دخل عليه أبو الأزهر الخراساني..

أبو جعفر: أنت .. أنت؟!.

أبو الأزهر: خادمك .. وطوع أمرك.

أكب أبو جعفر مع كاتبه على عدد من الرسائل .. ثم أخذها وتقدم نحو أبي الأزهر ..

أبو جعفر: خذ هذه الرسائل ولا تقرأها حتى تنزل الأعوص -على مقربة من المدينة- وارحل الساعة.

***

انطلق أبو الأزهر مع أعوانه لا يستقر له قرار، يوصل اليل بالنهار .. ولا يكاد ينام ليله حتى وصل الأعوص، ففتح الرسائل فوجد فيها رسالة له ..وأخرى لزياد .. وثالثة لعبد العزيز بن عبد المطلب ..

فدخل المدينة صباح يوم الثالث والعشرين من جمادي الآخر سنة 141هجرية، وتوجه من ساعته إلى دار الإمارة .. فلما توقف على باب دار الإمارة سأل أحد الحرس:

- أين الأمير؟.

الحارس: ركب مع جنده في بعض أمره ..

أبو الأزهر: إلحق بالأمير .. وأخبره أني أحمل إليه رسالة عاجلة من الخليفة ..

وقف أبوالأزهر ينتظر قدوم زياد بن عبد الله.. ولم يطل انتظاره حتى أقبل زياد .. فاستقبل أبا الأزهر..

أبو الأزهر: خذ هذه رسالة أمير المؤمنين.

استلم زياد الرسالة ونظر إليها .. فإذا فيها: ((إذا أتاك الأزهر فاسمع له وأطع)) .. فطوى الرسالة وقال:



- سمعاً وطاعة .. فأمر بما أحببت.

أبو الأزهر: إبعث إلى عبد العزيز بن عبد المطلب.

وأقبل عبد العزيز بن عبد المطلب من ساعته حتى وصل إلى دار الإمارة ودخل على زياد وأبي الأزهر، فدفع إليه أبو الأزهر بكتاب .. فنظر فيه فإذا هو أمر من الخليفة بالسمع والطاعة لأبي الأزهر.. فقال هو الآخر: سمعاً وطاعة.

ثم دفع إلى كل منهما كتابين آخرين .. أحدها كتاب إلى زياد يأمره بتسليم الإمارة إلى عبد العزيز والآخر كتاب إلى عبد العزيز يأمره بتولي الإمارة.

أبو الأزهر: يا عبد العزيز .. إبعث إلي أربعة كُبُول وحدّاد.

عبد العزيز: سمعاً وطاعة.

وأحضر الحرس الكبول (القيود) والحدّاد.

أبو الأزهر: أشدد أبا يحيى –زياد بن عبد الله الحارثي– واستصف ماله .. وأمر بالقبض على عماله.

ونفذت جميع الأوامر في استسلام وهدوء..

ولم تمض أيام حتى استعد أبو الأزهر للرحيل والعودة إلى بغداد..

فخرج يحمل زياداً مكبلاً بالقيود..

كان زياد قد أثر في عماله وأصحابه .. لما عرفوا فيه من الصدق والوفاء والدين.

فخرج جميعهم في موكب مهيب لتوديعه..

فلما بلغ أطراف مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .. وقف عماله يسلمون عليه ويودعونه.. لقد كانوا بمنزلة من الوفاء له حتى أنهم لم يهابوا أن يُتّهموا بالتشيع .. أو المناصرة لزياد..

فالتفت زياد نحوهم يودعهم ثم قال: بأبي أنتم .. والله ما أبالي بما يصنع بي أبو جعفر .. إذ أراكم في هيئتكم ومروءتكم هذه.

فرجع بعضهم وسار معه بعضهم ليلة يواسيه في سفره .. فلما أظلمت الدنيا من حولهم.. نظر زياد من محمله إلى أصحابه وتنفس الصعداء وقال:

- والله ما أعرف لي عند أمير المؤمنين ذنباً .. غير أني أحسبه وجد عليَّ في عبد الله بن الحسن .. ووجد دماء بني فاطمة عليّ عزيزة.

وبينما الركب يمشي أقبل رجل ..فاقترب من ركب أبي الأزهر وهمس إليه بكلام:

- إن عندي نصيحة في محمد وإبراهيم.

أبو الأزهر: إذهب عنا.



الرجل: إنها نصيحة لأمير المؤمنين.

أبو الأزهر: إذهب عنا .. ويلك لقد قتل الخلق.

فأبى الرجل أن ينصرف .. فتركه أبو الأزهر حتى كان في معزل .. فبعج بالسيف بطنه بعجة ألقاه ناحية وذهب..

وهكذا كان معظم أنصار أبو جعفر وقواد دولته هم ممن كانوا يعرفون لأهل البيت حقهم ومقامهم ..



الباب الثاني

الفصل الأول

(1)

الشعور بالخوف من الغد الآتي ..الغد الذي يحمل معه جزاء الغدر وانتصار المظلوم .. جعل يتملك على أبي جعفر قلبه ومشاعره وتخيلاته .. فقد كان يرى في أولاد عبد الله بن الحسن كابوساً لا يفارق مخيلته .. فبعد أن أحكم القبضة على زياد بن عبد الله الحارثي وولاته .. جعل لا يشغله شيء عن التفكير في وال يضبط له أمر المدينة وما حولها ويأتيه بمحمد وإبراهيم ..

فكر كثيراً فلم يجد سوى رجلاً واحداً يمكن أن يقوم ولو ببعض هذا العمل .. فمحمد بن خالد القسري – سيد اليمن– لن يألو جهداً في التقرب إلى أبي جعفر ..

ولذلك أرسل في طلبه .. فلما دخل على أبي جعفر قال له:

– يا محمد .. هذا أمر بولايتك على المدينة .. ولكن لن أوليك حتى تتكفل لي بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن .. وخذ ما شئت من المال والجنود .. فقد أطلقت يدك في كل شيء لا أضع عليك رقيباً..

محمد بن خالد: أمر مولاي .. فإني آتيك بهم إن شاء الله.

وسافر محمد بن خالد القسري نحو مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد تعهد لأبي جعفر بقتل وأسر ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..فلما اقترب من المدينة .. أرسل إلى أهلها يبلغهم بقدومه .. فخرجوا لاستقباله ثم دخل المدينة .. وجعل يتشدد في طلب محمد وإبراهيم .. وينفق الأموال الكثيرة في طلبهم ..

ودخل يوماً إلى السجن وجعل يطوف على من فيه من السجناء.. فرأى عبد الله بن الحسن وقد كسى الشيب وجهه .. وأثرالسجود في جبينه .. وتوهجت الأنوار من وجهه .. يطيل السجود ويكثر الذكر .. فمال إليه وأحبه.. منذ أن رآه لأول وهلة..

فجلس إليه يحادثه.. وكان عبد الله لا يجلس إلى أحد إلا وأثر فيه لقوة حجته ومنطقه ..

وتكرر اللقاء تلو اللقاء .. فأنس إليه وعرف له مقامه ..

ولكن رسائل أبي جعفر ما كانت لتترك محمد بن خالد وشأنه ..



فقد أتاه كتاب أبي جعفر يأمره فيه أن يرفع إليه بالأموال التي أنفقها ..

فكتب إليه كتاباً ذكر فيه مالاً عظيماً أنفقه في البحث عن أولاد عبد الله بن الحسن ..

فسرى الشك في قلب أبي جعفر واتهم محمد بن خالد، فقد أتاه بعض عيونه بأخبار محمد بن خالد وجلوسه إلى عبد الله بن الحسن ..

أبو جعفر- مخاطباً ابن الربيع-: والله ما جلس أحد إلى عبد الله بن الحسن إلا وأدخله في رأيه .. وإني لا أشك أن محمد بن خالد قد مال إلى عبد الله وبنيه.

ابن الربيع: مُره أن يحصر أهل المدينة في دورهم وأن يفتشها داراً داراً؟ فإن ظفر بمحمد وإبراهيم وتركهما .. افتضح أمره .. وإن أخذهما قطع ما بينه وبين بني الحسن .. وأرسل من عندك من يحضر هذا الأمر.

أبو جعفر: لله أنت .. نعم الرأي ما رأيت.

وبالفعل .. وصلت رسالة أبي جعفر إلى المدينة تحمل هذا الأمر .. ومع الرسالة الرصدة والعيون..

فخرج محمد بن خالد .. فجمع أهل المدينة .. فأمرهم أن يتجاعلوا .. وأن يعطي غنيهم فقيرهم .. ثم قسم بينهم أموالاً تكفي حاجتهم .. وأمر أهل المدينة أن يلزموا بيوتهم أسبوعاً لا يخرجون .. وسد الطرق .. وأحاط المدينة بجنده.

ثم أمر دوريات من الجنود لتكشف المدينة بيتاً بيتاً .. وعززهم بصكوك تمنع أي شخص يريد التعرض لهم أو منعهم .. فلم يبق بيتٌ في المدينة إلا وقلبّه الجند رأساً على عقب .. وبعد أسبوع من البحث المتواصل .. عادت دوريات الجند فارغة اليدين .. لم تظفر بأي أثر يدلهم على مكان محمد وإبراهيم.

(2)

استبطأ أبو جعفر محمد بن خالد القسري .. فرأبعزله ..ولكن الحيرة اخذته فيمن يخلفه .. فكلما نصب على المدينة والياً مال إلى عبد الله بن الحسن وأولاده .. واشتد على أبي جعفر أمر محمد وإبراهيم .. فطال سهره .. وثقله عليه همه .. وساء حاله .. فهو في كل يوم .. بل في كل ساعة يدرك شدة ضعفه .. وقلة حيلته..

كان أبو جعفر يريد رجلاً ذا رأي وفطنة .. بعد أن كاد اليأس أن يستولي عليه .. علّه يجد له مخرجاً من هذا المأزق ..

فلما دخل عليه أبو السَّعلاء قال أبو جعفر:

- أدركني يا أبا السَّعلاء .. وأشرْ عليَّ في أمر هذين الرجلين فقد غمني أمرهما..

لم يكن أبو السَّعلاء يحتاج إلى السؤال عن قصد أمير المؤمنين -بقوله الرجلين- فقد عرف الخاص والعام بما صار إليه حال أمير المؤمنين.



أبو السَّعلاء: أرى لك أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة .. فإنهم يطلبانهما بالثأر .. فأشهد لا يلبثون أو يخرجونهما إليك.

أبو جعفر: قاتلك الله .. ما أجد رأياً أحسن مما جئت به .. والله ما غَبي هذا علي .. ولكن أعاهد الله ألا أثأر من أهل بيتي بعدوي وعدوهم .. ولكني أبعث عليهم صعيلكاً من العرب .. فيفعل ما قلت.

ثم ركب أبو جعفر مع حاشيته .. وخرج يريد أن يروح عن نفسه .. فقد طال تفكيره في هذا الأمر .. فلما تجاوز قصره .. استقبله يزيد بن أسيد السُّلمي ..

أبو جعفر: أما تصحبنا يا يزيد؟

يزيد: حباً وكرامة يا أمير المؤمنين.

فلما جاوزه بفرسه .. مال إليه أبو جعفر وجعل يسره ببعض كلام ..

أبو جعفر: أما تدلني على فتى من قيس مقل .. أُغنيه وأُشرّفه وأُمكّنه من سيد اليمن –يعني محمد بن خالد القسري –يلعب به.

يزيد: بلى .. قد وجدته يا أمير المؤمنين.

أبو جعفر: فمن هو؟

يزيد: رياح بن عثمان بن حيان المري.

أبو جعفر: فلا تذكر هذا لأحد.

ثم انصرف أبو جعفر عائداً إلى قصره .. فأمر بنجائب وكسوة ورجال .. فهيئت للسفر.. ثم أمر بإحضار رياح بن عثمان المري.

كان رياح غليظ الطبع .. جاف القول .. متسلطاً..

فلما حضر رياح وجلس إليه أبو جعفر جعل يذكر له ما بلاه من غش زياد وابن القسري في ابني عبد الله .. ثم قال له أبو جعفر:

– يا رياح .. سر من ساعتك إلى المدينة واجعل همك ابني عبد الله.

فركب رياح من ساعته وخرج يريد المدينة ..

***

وصل رياح إلى المدينة مع حاجب له يكنى أبا البختري في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة 144 هجرية ..فأقبل حتى وصل إلى دار مروان .. فلما استقر فيها سألهم:

– أهذا دار مروان؟

أبو البختري: نعم يا مولاي .. هذا دار مروان.



رياح: هذا المِحْلال المِظْعَان -ونحن أولى من يظعن منها-. أين ابن القسري؟

فأرسلوا في طلبه وأتوا به حتى أدخل عليه .. فلما جلس بين يديه قال له رياح:

- كيف صنعت في الأموال يا ابن القسري؟

محمد بن خالد القسري: هذا كاتبي رزام أعلم بذلك مني.

رياح: أسألك وتحيلني على كاتبك؟!

ثم أمر به فوجأت عنقه .. وقُنِّع أسواطاً .. ثم أخذ رزاماً الكاتب .. فبسط عليه العذاب.. فجعل يجلده في كل موضع من جسده خمس عشر سوطاً .. ويده مغلولة إلى عنقه، ثم يطوفون به في أفناء المسجد والرحبة ..

فلما بلغ به العذاب أشده وامتلأ جسده بالقراح من أطراف قدميه إلى مقاص شعره ..أرسل إليه رياح: (ارفع بمحمد بن خالد .. وأنا أكف عن تعذيبك). فرفض رزام ذلك .. وأقسم رزام أن لا يفعل.. فأمر بضربه ..

فأقبل قائد الشرطة نحو رزام وقال له:

- أين تحب أن أضرب في هذا اليوم؟

رزام: والله ما في بدني موقع للضرب .. فإن شئت فبطون كفي ..

فأخرج كفيه .. وضربه فيها خمسة عشر سوطاً ..

وجعل رياح يرسل إليه: إن رفعت بابن القسري خليت سبيلك ..

فلما ألحوا عليه واشتد به الألم قال لهم:

- أرسلوا إلى رياح .. فليأمر بالكف عني حتى أكتب كتاباً أرفع فيه بمحمد بن خالد القسري وأتهمه.

فأمر رياح بالكف عنه .. وأقبل رياح إلى رزام وقال له:

- إذا كان العشية واجتمع الناس عندي .. فأقبل واقرأ الكتاب الذي رفعت فيه على محمد بن خالد بأنه كان يأكل أموال المسلمين.

فلما اجتمع رياح مع وجوه الناس .. دخل عليهم رزام فقال:

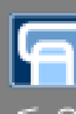
- أيها الناس إن الأمير أمرني أن أكتب كتاباً وارفع على محمد ابن خالد .. وقد كتبت كتاباً أتنجَّى به .. وأنا أشهدكم أن كل ما فيه باطل..

فالتفت إليه رياح .. وقد احمر وجهه .. وجحظت عيناه ثم صرخ في وجهه وقال له:

- ماذا قلت يا ابن الفاعلة؟ .. يا قائد الشرطة .. خذ هذا الأحمق واضربه مائة سوط.

***

أمضى رياح ليله مهموماً لم يجد النوم إلى عينه طريقاً .. فلما مضى من الليل ثلثه .. التفت



رياح إلى أبي البختري ثم قال له:

- يا أبا البختري .. خذ بيدي ندخل على هذا الشيخ ..

أبو البختري: أتقصد عبد الله بن الحسن؟!

رياح: نعم .. فهو مسجون في القبة منذ ولاية زياد الحارثي ..

فجعل رياح يتكئ على يد أبي البختري ويمشي في تبختر كما هو شأن الصعاليك الأراذل الذين يتولون أموراً ليسوا من أهلها .. فصعلوك الأمس أصبح بفضل الطغاة أميراً ..

فلما دخلا على عبد الله بن الحسن وهو متوجه يناجي ربه .. قد شغلته مناجاته عن الداخلين عليه.. وقف رياح على رأس عبد الله.. وجعل ينظر إليه في سخرية..

رياح: أيها الشيخ .. إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة .. ولا يد سلفت مني إليه .. والله لا لعبت بي ما لعبت بزياد وابن القسري .. والله لأزهقن نفسك أو لتأتيني بابنيك محمدٍ وإبراهيم ..

فلما انتهى عبد الله من مناجاته .. رفع رأسه ونظر في وجه رياح بن عثمان.. فلم يزد على أن قال:

- نعم .. أما والله إنك لأُزيرق قيس المذبوح فيها(1) كما تذبح الشاة ..

وقعت هذه الكلمات على رياح كأنما هي رماح اخترقت جسده .. فاصفر لونه .. وبردت أعضاؤه .. فأحس أبو البختري ببرودة يده .. وبخطلة في قدميه ..

أبو البختري: والله إن هذا ما اطلع الغيب.

رياح: إيهاً .. ويلك فو الله ما قال إلا ما سمع.

كان رياح يدرك مقام أهل البيت عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن حب المال والجاه كان قد أعمى بصيرته .. فلم يكن للعبرة والتذكرة أن تدخل قلبه ..

فأنىّ لقلب امتلأ بالأحقاد وحب الدنيا أن تدخله العبرة والموعظة ..

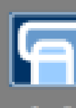
(3)

أمر رياح بعبد الله بن الحسن .. فثقِّلت قيوده .. وضيق عليه في سجنه .. وجعل رياح يتعرض بالأذى لكل من يأتي لزيارته أو السؤال عنه.

وكان الحسن بن الحسن أخو عبد الله متألها عابداً وقد آل على نفسه أن لا يدهن ولا يكتحل ولا يلبس ثوباً ليناً ولا يأكل طعاماً ليناً ما دام عبد الله في سجنه ..

وكان الحسن يأتي عبد الله في سجنه .. فيبكي حتى يخرج من عنده .. وهو لم يكلمه لكثرة بكائه وحزنه ..

فلما ضيق عليهم رياح .. تأخر الحسن عن الإرسال إلى أخيه عبد الله .. فأرسل عبد الله إلى أخيه ..فلما دخل الرسول على الحسن في داره بادره بالسؤال عن أخيه قائلاً:



- كيف تركت عبد الله؟

الرسول: على مثل الحال التي تعهد .. إلا أنه عاتِب، ويقول لك: إنك وولدك آمنون في بيوتكم ..وأنا وولدي بين أسير وهارب .. فإذا كنت مللت معونتي .. فآنسني برسلك .. فشهق الحسن واشتد بكاؤه وجعل يقول:

- بنفسي أبو محمد إنه لم يزل يحشد الناس باللائمة.

***

وجعل رياح يستخدم سلطانه أسوأ إستخدام .. فأساء إلى كل رجل تقي.. وكل مؤمن زاهد ..وشدد في طلب ابني عبد الله وملأ الطرق بالعيون.. وضاقت بهما السبل .. وأرسل محمد بن عبد الله إلى والده يستأذنه في السفر.. فأذن له .. فدخل محمد على أخيه وقال له:

- يا إبراهيم .. إذا عم الظلام خرجنا.

إبراهيم: أي بلد نقصد؟

محمد: نقصد العراق.

إبراهيم: إلى أبي جعفر !!

محمد: نعم نحو أبي جعفر .. فإنه لا يمكن أن يتوقع ذلك منا أبداً .. ولنا شيعة هناك .. وقد انقطعت عنا أخبارهم.

وركب محمد في جمع من أصحابه متوجهاً إلى العراق .. لا يشارك المسافرين طريقهم ولا يحدث أحداً عن وجهته ..

فلما بلغ العراق توجه إلى البصرة .. فدخلها وفرق أصحابه .. ونزل على عبدالله بن شيبان أحد بني مرة.

فبقي عنده ستة أيام .. وجعل الناس يدخلون إليه وكثرت الوفود إليه .. فبايعه جمع عظيم من العلماء .. ودخل عليه عمرو بن عبيد المعتزلي العابد .. فبايعه ..

وحُملت إلى بغداد أخبار قدوم محمد بن عبد الله على البصرة .. فخرج أبو جعفر .. وقصد البصرة .. فلما بلغها أقبل يسير على الجسر فلاقاه عمرو بن عبيد على الجسر .. بعد أن ودع محمد بن عبد الله فقال له أبو جعفر:

- يا أبا عثمان أبايعت محمداً؟!.

كان عمرو بن عبيد يرى أن في التعريض بالكلام مندوحة عن الكذب.. لذلك رفع عمرو نظره إلى أبي جعفر ثم قال:

- أما والله لو قلدتني الأمة أمرها ما عرفت لهم موضعاً ..

أبو جعفر: يا أبا عثمان .. هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا؟

عمرو: لا.

أبو جعفر: فاقتصر علىقولك وانصرف.

عمرو: نعم.

فانصرف أبو جعفر بعد أن علم أن محمداً قد خرج من البصرة .. ولم تُعرف له وِجْهة.. فعاد إلى الكوفة وأمر أن تخرج جماعة من خواصه .. لتسير مع المسافرين في الطرق المؤدية إلى المدينة والشام .. وغيرها.

***

واستشعر محمد بن عبد الله وأصحابه أنهم مطاردون .. وأن القوم يتبعونهم ..

إبراهيم: أي طريق نسلك وقد أمر أبو جعفر أتباعه بالانتشار في الطرقات؟

محمد: نسلك طريقاً لا يمكن أن يفكر أبو جعفر أنَّا نسلكه.

إبراهيم: أين تقصد؟

محمد: نتوجه إلى بلاد السند .. فنبقى هناك حتى تذهب حدته .. ويقل ذكره لنا.

وفعلاً خرجا متوجهين إلى بلاد السند ..

***

وبذل رياح كل ما في وسعه لعله يصل إلى محمد وإبراهيم .. أو إلى شيء من أخبارهما..

ولكن كل وسائل القهر والعنف باءت بالفشل .. لذلك فكر في أسلوب آخر ..

فأرسل جماعة من بني هاشم وبعض وجوه أهل المدينة ممن عرفوا بالولاء لبني الحسن إلى عبد الله بن الحسن في سجنه ينصحونه بتسليم ولديه ..

فلما دخلوا عليه في سجنه .. جعلوا يكلمونه وينصحونه ويمنونه بسلامة ولديه إن هو أظهرهما.

فلما فرغوا من كلامهم إلتفت عبد الله بن الحسن إلى الحسن بن زيد بن الحسن–وكان منحرفاً عن خط أهله– فقال له:

– يا ابن أخي .. والله لبليتي أعظم من بلية إبراهيم (صلوات الله عليه).. إن الله عزّ وجلّ أمر أن يذبح ابنه .. وهو لله في طاعة فقال إبراهيم {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ} .. وإنكم جئتموني تكلموني في أن آتي بابنيَّ إلى هذا الرجل فيقتلهما .. وهو لله عزّ وجلّ في معصية .. فو الله يا ابن أخي لقد كنت على فراشي فما يأتيني النوم .. وإني على ما ترى أطيب نوماً.

وبهذه الكلمات قطع عبد الله كل أمل للوسطاء، وحطم آمال رياح في أن يصل إلى محمد وإبراهيم من خلال أبيهم .. فأرسل رياح إلى أبي جعفر يعتذر إليه من تأخره في القبض على ابني عبد الله .. ويطلب منه



فرصة أخرى.

(4)

لم يحتمل أبو جعفر طول الإنتظار .. فقد جعل يفكر في طريق يصل بها إلى محمد وإبراهيم .. لقد بلغه أنهم ما زالوا في بلاد السِّند .. ثم أنهم رحلوا يقصدون المدينة ..

فلما أتى من أكد له خبر رجوعهم من بلاد السَّند .. وتوجههم نحو المدينة .. أرسل إلى رجل من ثقاته .. وكتب له عدداً من الرسائل على ألسنة رجال من الشيعة .. الذين كان يعرفهم حق المعرفة يوم أن كان أحد دعاة أهل البيت (ع) وجهزه بأموال ولطائف .. وأمره بالسفر إلىالمدينة وإظهار الحب لأهل البيت والتودد .. وأن يكثر الزيارة لعبد الله بن الحسن .. ثم أخبره ببعض ما سينال به ثقة عبد الله بن الحسن..

فسار الرجل نحو المدينة ودخل على عبد الله في سجنه .. وأكثر التردد عليه .. ووضع بين يديه الرسائل .. فلم يشك عبد الله في صدقه .. فلما أنس إليه .. سأله الرجل:

- أين ولدك محمد؟ فقد طال مقامي في المدينة .. وأخاف أن يتهمني رياح .. فلا أتمكن من الرجوع ..

عبد الله: هو في جبل جهينة متخفياً ..

الرجل: ولكن كيف لي أن أصل إليه وهو ينفر من كل الناس ..

عبد الله: أمرر بالرجل الصالح (علي بن الحسن) الذي يدعى بالأغر .. وهو بذي الإبر .. وهو يرشدك ..

فخرج الرجل وقد نال مراده .. فأسرع من ساعته نحو علي بن الحسن .. فدله على محمد بن عبد الله ..

فتوجه الرجل على جهينة .. في مكان قد حدده له علي بن الحسن .. وقبل أن يخرج إلى مكان محمد .. مر على رياح ..

الرجل: إسمع يا رياح .. إن محمداً في (رضوى) من جبل جهينة .. وإني خارج إليه الآن .. فأحدثه وأشغله .. وأنت أرسل كتيبة من الجيش فتمسك بي وبه .. واجعل عليها رجلاً يعرف مسالك البلاد.

رياح: سأرسل عمر بن عثمان بن مالك الجهني .. أحد بني جشم.

ثم خرج الرجل متوجهاً إلى شعب (رضوى) ..

فلما بلغ هناك استقبله محمد بن عبد الله .. فجلس إليه وجعل يحدثه .. ومعه عبد الله بن عامر الأسلمي، وابنا شجاع من أصحاب الإمام ..

وتحرك الجيش من المدينة يسلك الوديان والشعوب .. ليحيط بشعب (رضوى) من كل ناحية .. وتحقق الأمر .. وقربت لحظة الفرج .. فلكم انتظر أبو جعفر ورياح لحظة كهذه اللحظة ..

فمنذ عام 132 هجرية إلى عام 144 هجرية .. والجيش العباسي وجواسيسه عاجزون عن الإمساك بمحمد بن عبد الله ..

اثنا عشرة سنة من المطاردة والمتابعة ستنقضي بعد لحظات .. ليجثو ذلك الأسد العتيد بين يدي أبي جعفر .. لينفذ فيه حكمه .. ويتحقق لأبي جعفر مراده ..

لقد آن الأوان لأبي جعفر أن ينام قرير العين .. مطمئن النفس .. وقد وارى التراب أشد خُصومه.. ذلك الخصم الذي كان بالأمس هو من يجب أن يجلس على عرش الخلافة..!

***

كان عبد الله جالساً في سجنه منشرح الصدر .. بعد أن رحل عنه عين أبي جعفر .. قد اطمأن إلى أن هناك من حمل نفس همه .. ويسعى معه لتحرير هذه الأرض من ولاة الجور والظلم ..

لقد أتاه الجواسيس برسائل من المقربين لأبي جعفر .. يعطون لولده محمد البيعة ..

كان يقول في نفسه .. لا غرابة أن يكتبوا إليه .. فإنما هم شيعتنا بالأمس .. اختدعهم أبو جعفر فمالوا معه .. واليوم عاد إليهم رشدهم .. لما رأوا ظلم أبي جعفر وتسلطه ..

وقطع تفكيره دخول الحارس عليه يبلغه أن هناك زائراً يريده ..

التفت عبد الله نحو باب السجن .. فإذا الداخل رجل لم يره من قبل ولا عرفه ..

عبد الله: ممن الرجل؟

الرجل: أنا رسول كاتب سر أمير المؤمنين.

عبد الله: وما دليلك على هذا؟

الرجل: رجل أتاك صباح اليوم قبلي يحمل إليك رسائل من فلان وفلان وفلان .. وأعطاك من الأموال كذا وكذا وكذا ..

عبد الله: كل ما ذكرت قد كان.

الرجل: كاتب سر أمير المؤمنين يبلغك السلام .. ويقول لك .. الحذر .. الحذر، فكل الرسائل مكذوبة .. وليس الرسول إلا جاسوساً لأمير المؤمنين.

تغيّر وجه عبد الله بن الحسن لما سمع .. وجعل يسترجع .. ويكرر الإسترجاع.

الرجل: أرسلني إلى رجل يأتيك .. فترسل إلى محمد ليحذره..

عبد الله: إسأل عن دار أبي هبار .. فإذا دلوك عليه فقل له فليسرع إلي.

فخرج الرجل .. فلما لقي أبا هبار .. أمره بالإسراع إلى عبد الله ..فاسرع إليه من ساعته..

فلما دخل على عبد الله .. قال له:

– اسمع يا أبا هبار .. أخرج إلى علي بن الحسن الأغر .. فاسأله هل أتاه رجل على وصف كذا وكذا .. ودله على محمد؟ .. فإذا قال: نعم، فأسرع إلى محمد .. فإن الرجل قد توجه إليه .. فأخبر محمداً أنما هو



جاسوس لأبي جعفر فلا يعطيه سراً ولا يكشف له عن مستور .. ولينظر في أمر الرجل .. ويتحول عن مكانه.

وأسرع أبو هبار إلى الرجل الصالح علي بن الحسن .. فلما دخل عليه قال له أبو هبار:

- هل أتاك رجل على وصف كذا وكذا؟

علي: نعم!! .. وقد دليته على محمد حتى يأتيه كما قال عبد الله.

أبو هبار: إنما الرجل جاسوس لأبي جعفر.

علي: فأسرع إلى محمد .. فإني أخشى أن يؤخذ على غرة.

جعل أبو هبار يستحث فرسه .. كأنما هو في ميدان السباق..

وبالفعل .. قد كان يتسابق مع الموت .. فقد صار جيش رياح يكاد أن يكمل مهمته في تطويق المكان .. فلما دخل أبو هبار على محمد وأصحابه .. فإذا الرجل يجلس في أوساطهم في كهف كان قد اتخذ منه محمد بيتاً ..

***

كان جاسوس أبي جعفر منشرح الصدر .. يكثر الضحك .. ويرفع صوته بالكلام .. ويكثر الإلتفات إلى مدخل الكهف .. لا يشك في أن قائد جيش رياح سيلج عليهم من الباب في أي لحظة .. فلما دخل أبو هبار .. استنكره ..

فجلس أبو هبار إليهم .. ثم مال أبو هبار على محمد.. وهمس في أذنه قائلاً: إن لي حاجة.

فاستأذن محمد بن عبد الله أصحابه وخرج وتبعه أبو هبار .. فلما خليا من الناس قال له أبو هبار:

- إن الرجل جاسوس لأبي جعفر .. وأنا رسول ابيك إليك .. فانظر ماذا أنت فاعل..

محمد بن عبد الله: إنا لله و إنا إليه راجعون .. فما الرأي؟.

أبو هبار: تدعني .. فأقتل الرجل.

محمد بن عبد الله: ما أنا بمقترف دماً إلا مكرهاً .. أو ماذا؟

أبو هبار: توقره حديداً .. وتنقله معك حيث تنتقل.

محمد بن عبد الله: وهل بنا فراغ من الخوف والإعجال .. أو ماذا؟

أبو هبار: تشدوا وثاقه .. وتودعه بعض أهل ثقتك من جهينة.

محمد بن عبد الله: هذه إذاً.

فرجعوا إلى مجلسهم .. فلما دخلوا المكان .. فإذا الرجل قد خلي منه ..

أبو هبار: أين الرجل؟

عبد الله بن عامر: قام بركوة واصطب ماء .. ثم توارى بهذا الظرب يتوضأ.

أبو هبار: فأسرعوا يا قوم .. وأحيطوا بهذا الظرب .. فإنما الرجل جاسوس لأبي جعفر.

أسرع الجميع يجولون حول الجبل .. فتوجه كل منهم من جهة ..وطال البحث .. ولم يجدوا له أثراً كأنما إبتلعته الأرض.

وبينما الرجال على مثل هذه الحال.. إذا برجال رياح وجنوده يشرفون عليهم من أطراف الشعب ..

كان محمد قد دخل إلى كهف آخر .. كانت فيه جارية له توشك أن تضع حملها ..

فلما سمع أصوات الرجال خارج الكهف .. أسرع ينظر ماذا في الخارج .. فعلم أنه أحيط به.

فأقبل نحو الكهف .. يريد أن يحمل الأمة .. لينجيها معه .. فإذا بها قد وضعت حملها.

فأمر أن تسرع وتحمل مولودها .. ليحملها على فرسه .. فحملت مولودها ..

وأصعدها محمد على فرسها .. ورحل يريد النجاة من أصحاب رياح وجنده ..

فلما أسرع بالفرس .. سقط الطفل من بين يدي أمه .. فجعل محمد والأمة ينظران إلى الولد .. وهو يتدحرج في الجبل حتى تمزق وتبعثرت أشلاؤه .. وتكسر رأسه .. وخضب الأحجار بدمه .. ومزقت صخور مرو الحداد جسمه ..

صاحت الأم صيحة المفارق .. وأرادت أن ترمي بنفسها من على ظهر الحصان .. فأمسكها محمد بن عبد الله.. وسالت دمعة أبٍ لم يمنحه خصومه أن يبكي على ولده .. فإذا لم يسرع فسيمزق جسده .. ويُلحق بولده ..

فمن ذا يهدئ روعه؟!

أو يمسح الدمع .. أو يداوى جرحه؟!

مسكينة أمٌ على إثر الولادة تفقد طفلها ..

كان الشقاء يحرمها ومخاضها أن تحتضنه بصدرها ..

من ذا يداوي جرحها .. أو يُذهب الحزن العظيم بقلبها..

لما رأت رأس الوليد على الصخور تمزقت أطرافها ..

ورأت خدود الطفل بعد بياضها تتفجر منها الدماء ..

ورأت أكفاً لم تجن في الدنيا أذىً ..

قد قطعت .. فكيف لا تبكي وترمي نفسها؟! ..

يا أم طفل قد قتل لا تجزعي ..

فأبوه يوماً سوف يتبع طفله ..

***

وجعل محمد بن عبد الله يخاطب نفسه وهو يحاول أن ينجو بنفسه:

منحرق الخفين يشكو الوِجا تنكُبُه أطراف مروٍ حِدادْ

شرده الخوف فأزرى به كـذاك مـن يكـره حـر الجِلادْ

قد كان في الموت له راحة والمـوت حتـمٌ في رقـاب العبادْ

وبعد طول مطاردة وإشراف على الهلكة .. وتقحم المخاطر .. كتب الله النجاة لأوليائه .. وخيب آمال أعدائه .. فخابت مساعيهم .. ونجا محمد بن عبد الله.. ولم يقترب محمد بعدها من المدينة فترة من الزمن.

(5)

بعد أن طال شوق محمد بن عبد الله إلى أهله .. وإلى ديارٍ عاش فيها أيام صباه ..وطلب فيها العلم .. واشتاق إلى زيارة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. أضمر في نفسه دخول المدينة .. ولما أقبل عثمان بن مالك –وكان من خلّص أصحابه– أسر إليه بالأمر..

محمد بن عبد الله: يا عثمان بن مالك .. لقد اشتد شوقي إلى أهلي بالمدينة .. وزيارة قبر جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فهل تصحبني إلى المدينة؟.

عثمان: إن عيون رياح تتبع كل من يدخل المدينة .. فأخاف أن يقع ما نحذره.

محمد بن عبد الله: يكفينا الله شرهم .. ويحفظنا بحفظه.

عثمان: فافعل ما شئت .. فأنا معك.

***

وخرج محمد بن عبد الله وصاحبه حتى دخلا المدينة متنكرين .. وجعلا يسيران في الطريق مختلطَين بالناس .. فلما انتهيا من زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وطافا ببعض ديار بني هاشم قال محمد بن عبد الله لرفيقه:

– يا عثمان .. ألا تأتي فنصلي ركعتين في مسجد الفتح؟ ثم ننصرف.

عثمان: إذاً فلنسلك هذه الطريق – وأشار إلى أحد الشوارع ..

كان الشارع خالياً من المارة وازدحام الناس .. فسارا حتى توسطا الطريق .. وإذا بكوكبة من الفرسان

يظهرون من أعلا ذلك الشارع.

عثمان: يا مولاي هذا رياح وأعوانه ..

محمد بن عبد الله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

كان محمد بن عبد الله يسير باطمئنان .. وكأن شيئاً لم يحدث .. ولم يلتفت ولم يغير من مشيه ..

محمد بن عبد الله: إمض يا عثمان واسبقني.

فجعل عثمان بن مالك يسرع في المشي .. وقدماه لا تكاد تحمله خوفاً أن تكون هذه هي لحظة النهاية ..

جعل الإمام يواصل سيره .. فلف رداءه .. وغطى يديه .. وأسدل شيئاً على وجهه.

فلما صار على مقربة من موكب رياح .. انحاز إلى ناحية الطريق .. فجلس وجعل الطريق من ورائه .. فلما قابله رياح ومن معه .. التفت إليه رياح .. ثم عاد ينظر إلى أصحابه فقال –وقد أخذ يضحك ويقهقه: امرأة رأتنا فاستحيت... ثم واصل سيره مع أتباعه.

كان عثمان يرقب هذا الموقف .. وقد صار لا يقوى على الصبر ..

لقد كانت المفاجأة مذهلة .. ولكن من عاش مشرداً منذ الصبا لا يهزه مثل هذا الموقف .. ولا يضطرب أمره عندها..

ولما انصرف موكب رياح .. قام الإمام من مكانه وتوجه بصاحبه نحو مسجد الفتح.. فصلى هناك ووقف يدعو الله ويناجيه طويلاً .. ثم خرج مع صاحبه على طريق الحرة .. ومضى حتى قابل بئراً فيها .. وكان الوقت قبيل الغروب .. فإذا برياح مرة أخرى .. يطل مع فرسانه .. بعد رحلة صيد وبحث عن محمد بن عبد الله..

كانت المفاجأة للإمام أعظم من الأولى .. فلا ملجأ ولا مهرب .. وقد صار على مقربة منه..

وأقبل نحو البئر .. فوقف الإمام بين قرنيها .. يظهر أنه يستقي ..

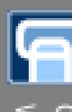
فأقبل رياح نحو البئر .. حتى أيقن الإمام أنه لن يفلت هذه المرة.. وأن رياحاً سيعرفه ..

فلم يلتفت الإمام إليهم .. بل جعل يجر حبل الدلو.. وهو يتلو بعض آيات من القرآن.. فمر رياح بمحاذاة البئر .. وجعل ينظر إلى ذراعي محمد بن عبد الله .. وقد أعجب بقوتها.. فانشغل بهما عن النظر إلى وجهه .. فالتفت رياح إلى أصحابه وراح يضحك ويقول:

– قاتله الله من أعرابي .. ما أحسن ذراعه.

ثم واصل رياح سيره .. وكأنه لم يكن معنياً بأمر البحث عن الإمام ..{وَجَعَلْنَا من بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} ..

كانت حياة الخوف والتشرد والبُعد عن الأهل والوطن حياة قد أثقلت كاهل الإمام ..فمنذ عرف نفسه وهو



يطارد ويتابع ..

فبالأمس مع ولاة خلفاء الدولة الأموية .. واليوم مع أمراء الدولة العباسية ..

فإلى متى يعيش حياة التشرد والخوف؟ .. إلى متى؟؟ ..

الفصل الثاني

(1)

كانت السنة الثالثة توشك أن تنقضي أيامها وعبد الله بن الحسن حبيس السجون في المدينة لا يمر عليه زمن حتى يساومه الظالمون في ولده لكي يسلمه إليهم .. ليسفكوا دمه..

وكما ساوموا أبا طالب بالأمس ليسلم إبن أخيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى طغاة قريش ليقتلوه .. ها هم اليوم يساومون عبد الله بن الحسن –حفيد أبي طالب– ليسلم ولده –محمد بن عبد الله(ع) إلى طغاة بني العباس ليقتلوه ..

وبعد طول انتظار وترقب من أبي جعفر .. أيقن أنه حان الوقت ليحسم هذا الأمر..

وعلم أن كل الناس عاجزون عن أن يأتوا بمحمد وإبراهيم ..

فأسرّ في قرارة نفسه أن يعالج الأمر بنفسه .. وعزم على الحج في ذلك العام الذي كان يوافق سنة 144 هجرية .. وأهم أهدافه هو وضع حدٍ لهذه القضية التي انكت قلبه .. وأثقلت كاهله ..

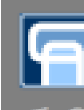
فلما أطلت الأشهر الحرم .. ودنت أيام الحج .. خرج أبو جعفر ليكون على رأس الموسم .. وبدأ رحلة طويلة .. لا يمر ببلدة إلا ونزل بها يتلمس الأخبار علّهُ يجد بُغيته ..

***

وفي المدينة علم الناس بقدوم أبي جعفر للحج في هذا الموسم .. فانشرحت صدور أقوام .. وضاقت صدور آخرين..

وكان من أشد القلوب ضيقاً وأكثرها خوفاً .. والي المدينة رياح بن عثمان المري..

فبماذا يجيب أبا جعفر .. إن سأله عن محمد وإبراهيم .. أيقول له: عجزت عن الإتيان بهما فيعزله عن ولايته .. أم كيف يجيبه إن سأله: أين ذهبت الأموال من بيت المال؟ .. ويا ترى كيف سيكون مصيره هل سيكون مصيره مصير زياد الحارثي، وابن القسري؟ أو أنه سيكون له شأن آخر؟



وهل سيعود بعد الإمارة صعلوكاً من صعاليك العرب .. يشبع يوماً ويجوع آخر؟ و هذا شيءٌ لا يطاق .. لا يطاق !! ..

***

كانت مثل هذه الأفكار والتساؤلات قد أسهرت ليله .. وسلبته راحته.. فخرج إلى المسجد الجامع .. مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في أشد انفعاله..

وأمر أن يؤذن في الناس .. الصلاة جامعة ..

فاجتمع أهل المدينة .. ومن حضرها لاستقبال موسم الحج ..

وأقبل رياح .. فصعد المنبر .. وجعل ينظر إلى الناس نظرة من لو تمكن لضرب أعناقهم لفعل.. فقد صار يتهم الجميع ..

فبدأ رياح خطبته المنْكَرة بذكر أهل المدينة.. وأفحش القول في كل من سكنها .. فسكت الناس ولم يجيبوه ..

ثم تحول إلى ذكر آل الحسن وخصوصاً محمداً وإبراهيم.. فجعل يقول: أين الفاسقين؟ الخالعين؟ المحاربين؟!

وتكلم بكلام رماهما فيه بالفاحشة ..

ثم تكلم في أمهما هند بنت أبي عبيدة.. فرماها بالمنكرات ..

فكبُر على أهل المدينة ما قاله رياح في آل الحسن .. لما يعرفون من فضلهم .. ومكانتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

وجعل من في المسجد يقولون بأعلى أصواتهم: سبحان الله .. سبحان الله .. الله أكبر .. الله أكبر ..

ففزع رياح من هذا الموقف .. وجعل يتوعدهم قائلاً:

- يا أهل المدينة .. إنكم لأكلُّ الناس عن شتمهما .. ألصق الله بوجهكم الذل والهوان .. أما والله لأكتبن إلى خليفة المسلمين.. فلأعلمنه غشكم وقلة نصحكم.

فارتفعت الأصوات من أطراف المسجد: والله لا نسمع منك يا ابن المحدودة.

وبدأوا يرمونه بالحصى .. فلم يجد من طريق أمامه إلا أن يولي هارباً .. فاقتحم دار مروان وأغلق عليه الباب.

وخرج الناس يتبعونه واصطفوا يريدون أن يقتحموا عليه داره .. وجعل الناس يشتمونه .. وينتصرون لآل بيت نبيهم .. ولكن عيون بني العباس وأنصارهم انطلقوا في أوساط الناس يخذلونهم ويحذرونهم نقمة الخليفة عليهم، وقرب وصوله إليهم .. فتراجع الناس .. وكف بعضهم بعضاً..

(2)

كان والي صدقات المدينة عين أبي جعفر ومحط ثقته –عبد العزيز بن سعيد– قد خرج إلى أبي جعفر .. فنقل



له أخبار المدينة ..

ولما انتهى عبد العزيز من حديثه أظهرأبو جعفر الضيق والحسرة واليأس .. فكيف يصل إلى محمد وإبراهيم؟

وعلم الخليفة من هذه الأحداث أن أمر محمد وإبراهيم قد استفحل .. وأن كل ما بذله من أجل أن ينزع حب أهل البيت من قلوب الناس قد باء بالفشل..

وكان في مجلسه عبد الله بن عمران بن أبي قرة .. فالتفت إلى أبي جعفر وقال له:

- أتطمع أن يخرج لك محمد وإبراهيم .. وبنو الحسن مُخَلُّون؟ والله للواحد منهم أهيب في صدور الناس من الأسد.

كان لهذه المشورة عظيم الأثر في قلب أبي جعفر .. فقد علم أنه لم يطلقها إلا خبير بأحوال أهل المدينة .. ذو دهاء وفطنة..

أبو جعفر: يا عبد الله .. من أشار عليك بهذا الرأي؟

عبد الله: فليح بن سليمان.

فدعا أبو جعفر من ساعته مبعوثه الخاص أبا الأزهر المهري وقال له:

- يا أبا الأزهر .. إسبقني إلى المدينة .. وأْمر رياحاً أن يأخذ من بني الحسن .. حسناً وإبراهيم إخوة عبد الله بن الحسن .. وحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن.. وسليمان وعبد الله ابني داود بن الحسن بن الحسن .. ومحمد وإسماعيل وإسحاق أبناء إبراهيم بن الحسن بن الحسن .. وعبد الله وعباس ابني الحسن بن الحسن بن الحسن .. وأن يضعهم في السجن ويوقرهم بالحديد.

***

أقبل أبو الأزهر إلى المدينة .. ونقل إلى رياح ما قاله أبو جعفر .. فكان في هذا الأمر جلاء همه .. وذهاب حزنه .. وبادر رياح على الفور إلى تنفيذ الأمر..

فبعد أن عاد الناس إلى ديارهم بعد صلاة العشاء .. خرج قائد شرطة رياح مع جنوده ..فأقبلوا إلى دور بني الحسن على غرة ..

فجعلوا ينزعون الرجل من بين أهله وعياله .. لا يدري لأي شيء يطلبونه.. فيقيدونه بالحديد ويرسلونه إلى القبة التي فيها عبد الله بن الحسن ..

وأقبل الجنود على العباس بن الحسن المثلث وهو جالس على باب الدار .. وأمه عائشة بنت طلحة بن عمر تحدثه .. فلم يشعر إلا وقد أُخذ من أطرافه .. ووضعت القيود في يديه وقدميه..

فجعلت أمه تنادي: دعوني أشمه .. دعوني أشمه ..

قائد الجند: لا والله ما كنت حية في الدنيا.

وجمع بنو الحسن في سجن رياح بن عثمان المري ..

وخليت المحاريب من روادها .. وحلقات العلم من شيوخها .. وأقفرت شوارع مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أبناء سبطه الأكبر ..

لم يبق حراً طليقاً من آل الحسن ممن له شأن ومكانة في قلوب الناس إلا علي بن الحسن المثلث الذي كان يسمى علي العابد.. فضاقت به أرجاء المدينة واستوحش من أهلها..

فلما صلى الفجر .. أقبل على رياح وهو جالس في رحاب المسجد النبوي مع جمع من رفاقه .. فوقف جانباً ينظر إلى رياح .. ثم تقدم نحوه متلفقاً في ساج له ..

رياح: مرحباً بك وأهلاً وسهلاً.

علي العابد: جئت لتحبسني مع قومي.

رياح: من علي.. العابد؟! أما والله ليعرفها لك أمير المؤمنين .. خذوه فألحقوه بأهله.

وضاق السجن بمن فيه من بني الحسن، وزياد بن عبد الله الحارثي، ومحمد بن خالد القسري، وأخيه، وكاتبه رزام ..

فمن يحمي النساء إن غاب حاميها؟! ..

ومن للشيخ الكبير؟ .. ومن للطفل كي يرعاه؟

نفسي الفداء للقاطنين بسجنهم .. والهاجرين ديارهم ..

هرباً بدين الله من نفي الطغاة ..

وأرسل عبد الله بن الحسن يستأذن أن يشتري لهم داراً تسعهم يكون سجناً لهم.. وإن كان السجن هو السجن حتى ولو كان باتساع الأرض..

وبعد طول انتظار أتت الرسل بإذن رياح .. فاشترى عبد الله داراً واسعة فنقلوا إليها..

***

وعلم محمد وإبراهيم بما حل بأهلهما .. فاشتد حزنهما.. وعظمت بلواهما.. فتوجها نحو المدينة رغم الخوف والخطر.. حتى وصلا إلى الدار وليس فيها إلا أمهما هند بنت أبي عبيدة..

محمد: أماه.. إني قد حمّلت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به.. ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم .. فعسى أن يُجلى عنهم..

هند: لا تفعل يا بني حتى يأتيك رأي أبيك.

محمد: ومن يكون رسولي إلى أبي .. وقد ضيق رياح على الرسل؟!

هند: أنا يا بني أتنكر فآتيه في هيئة الرسل .. ثم آتيك برأي أبيك.



وغيرت من لباسها .. حتى صارت كهيئة الرسل..

ثم خرجت إلى الدار التي فيها آل الحسن .. فأذن لها في الدخول على أنها رسول إليهم ..

فلما دخلت عرفها عبد الله بن الحسن .. فأسرع إليها ..

عبد الله: خيراً يا امرأة .. ما أخرجك من بيتك على مثل هذا الحال .. عسى أن لا يكون قد وقع بمحمد وإبراهيم مكروه.

هند: لقد تركتهما في الدار .. فقد أتاني محمد وقد ضاقت نفسه لسجنكم .. وأراد أن يأتيكم ويضع يده في أيديكم .. ليفك عنكم أسركم.

عبد الله: كلا .. بل نصبر .. فو الله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً ..قولي له فليدع الأمر .. وليجد فيما هو فيه .. فإن فرجنا بيده.

فخرجت هند من السجن وعادت إلى دارها .. فأخبرت ولديها برأي أبيهما وأثنت الإمام عن عزمه.

الفصل الثالث

(1)

توجّه أبو جعفر لأداء فريضة الحج ونزل بالربذة قبل أن يدخل المدينة في ذي القعدة عام 144 هجرية..

فلما علم رياح بنزول أبي جعفر بالربذة، خرج إليه في وجوه أهل المدينة .. ورياح يرجو أن يكون قد رضي مولاه وخليفته عنه بما فعله بأبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

فلما جلس إلى أبي جعفر أطلعه على أخبار المدينة التي لم يكن بغافل عنها .. فعيونه ينقلون إليه الأخبار بلا انقطاع ..

أبو جعفر: أخبرني يا رياح .. أين ترى محل آل أبي طالب من قلوب الناس ..

رياح: يا أمير المؤمنين .. أما أهل خراسان فشيعتك وأنصارك .. وأما شيعة أهل العراق فشيعة آل أبي طالب .. وأما أهل الشام فو الله ما هو عندهم إلا كافر .. وما يعتدون بأحد من ولده .. ولكن أخاهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان .. والله لو دعا أهل الشام ما تخلف عنه منهم رجل.

أبو جعفر: فعد إلى المدينة وأرسل إليَّ من في سجنك من آل الحسن .. وأرسل إلى أخيهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان .. فأخرجه معهم .. واستصف أموالهم واعرضها للبيع.

***

كان أبو جعفر قد أضمر في نفسه أن يضع لهذا الأمر حداً .. حتى لو اضطر أن يقتل كل آل الحسن ..

فلما دخل رياح المدينة .. بدأ بالأموال فباعها .. وجرد نساء أهل البيت وأطفالهم من كل ما يملكون ..



فجعل أحدهم لا يدري من أين يسد جوعه!! وكيف يستر عورته!!

وحين دخل أبو حنين على عبد الله بن الحسن في سجنه.. سأله عبد الله:

– هل حدث اليوم من خبر؟

أبو حنين: نعم .. فقد أمر رياح ببيع متاعك ورقيقك .. ولا أدري أأحدٌ يقدم على شرائها؟

عبد الله: ويحك يا أبا حنين .. والله لو خُرِجَ بي وببناتي مسترقين لاشتُرينا!

كان عبد الله يعلم أن الناس أتباع سلاطينهم .. وأن كل منافق لا يمكن أن يدخل في قلبه حب أهل البيت (ع) بل هم أشد خصومة ..

وأدرك أن أصحاب القلوب المريضة سيبادرون إلى شراء أمواله لينالوا بذلك رضاء السلطان .. ورضاء قلوبهم المولعة ببغض آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ..

***

وبعد أن انتهى رياح من بيع الأموال .. حمل آل محمد من سجنهم قد أثقلتهم سلاسلهم .. وضاقت بهم أحوالهم.. وأخرجهم إلى الربذة..

وطافت القافلة بشوارع المدينة .. وخرج صبيان آل الحسن.. ونساؤهم ليودعوا آباءهم وإخوانهم في موكب مهيب ..

وعزفت الدموع على الخدود أنشودة الوداع ..

وخرج أصحاب الأحقاد والضغائن وعباد الهوى .. وأتباع الأمراء .. ليمتعوا أنظارهم برؤية آل محمد يساقون كما تساق الأغنام.

فلما صارت القافلة على مشارف المدينة .. التفت نحوهم شيخ حاقد يسمى الحارث بن عامر بن عبد الرحمن فقال لهم:

– الحمد لله الذي أخرجكم من بلدنا ..

والتفت إليه الحسن بن الحسن وأراد أن يجيبه فأوقفه أخوه عبد الله وقال له: عزمت عليك إلا سكتَّ.

فصمت الحسن المثلث وامتثل لأمر أخيه الأكبر ..

***

كان هناك شيخ طاعن في السن يرسل الرسول تلو الرسول ليأتوه بأخبار عشيرته وبني عمومه ..

كان ذلك الشيخ هو الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر (ع).. فلما أقبل الحسين بن زيد بن علي كان الإمام جعفر ينتظره ..

جعفر: ما وراءك؟

الحسين: رأيت بني الحسن يُخرج بهم في محامل.

جعفر: إجلس يا أبا عبد الله .. ثم أشار إلى غلام له فقال له: إذهب أنت أيها الغلام .. فإذا رأيتهم قد أقبلوا فاسبقهم .. وأخبرني بقدومهم ..

وبينما جعفر بن محمد يصلي ويناجي ربه ويتضرع إليه.. إذا بالغلام يدخل عليه..

الغلام: هاهم قد أقبلوا يا مولاي ..

فقام جعفر الصادق من مكانه وصعد إلى مكان يشرف على الطريق .. يراهم من حيث لا يرونه .. وكأنه يريد أن يلقي عليهم نظرة الوداع الأخيرة .. قبيل الرحيل الذي ليس بعده رجوع.

فإذا به يرى عبد الله بن الحسن في محمل يتقدم القافلة وبعده آل الحسن .. فهملت عيناه وجرت دموعه حتى خضبت لحيته .. ثم التفت جعفر إلى الحسين بن زيد بن علي فقال:

- يا أبا عبد الله .. والله لا تُحفظ حرمة لله بعد هؤلاء .. والله ما وفت الأنصار وأبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما أعطوه من البيعة على العقبة، فقد حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: (خذ عليهم البيعة بالعقبة، فقال: كيف آخذ عليهم؟ .. قال: خذ عليهم يبايعون الله ورسوله أن يطاع فلا يعصى وأن تمنعوا رسول الله وذريته مما تمنعون منه أنفسكم وذراريكم).. فو الله ما وفوا له حتى خرج من بين أظهرهم، ثم لا أحد يمنع لامس!! اللهم اشدد وطأتك على الأنصار.

واختفت القافلة عن الأنظار وتوارت بيوت المدينة عن عيون أصحاب القافلة..

وقطعت القافلة الميل الأول .. ثم الميل الثاني ..

فإذا بفارسين كأنهما البرق في لمعانه يطويان الأرض .. ويتجهان نحو القافلة ..

كان الفارسان لا يظهر منهما إلا لمعان عيونهما .. جعلا يستعرضان ركاب القافلة ..

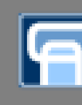
وقد صار أحدهما عن يمين محمل عبد الله بن الحسن .. والآخر عن شماله ..

محمد: أبي .. ماذا ترى أن نفعل؟ .. فإني أخاف عليكم صولة هذا الطاغية .. هل ترى أن أخرج بمن قد بايعني؟

عبد الله: يا محمد .. وأنت يا إبراهيم .. لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك، إن منعكم أبو جعفر أن تعيشا كريمين، فلا يمنعكما أن تموتا كريمين.

واستأذنا أباهما وانطلقا لا يعرف أحد من هما؟ ولا من أين أتيا؟ ولا أين سيذهبان؟

وما هي إلا ساعة من الزمن حتى توقفت القافلة بالربذة .. وأقبل جنود أبي جعفر بالحديد والقيود والأغلال حتى يضيفوها إلى ما على بني الحسن من القيود ..



وبدأ الحداد يقيّد أقدامهم ويَغِلّ أيدهم إلى أعناقهم .. وكان عليٌّ العابد قد قام يصلي ويتنفل لا يأبه بما يدور حوله.. فصليل القيود وضرب مطارق الحدادين ما كانت لتشغله عن عبادته ..

ولكن آهات المتألمين من أهل بيته كانت تعصر قلبه وتنكيه ..

فقد كان هناك قيد شديد الثقل .. فجعل آل الحسن يتحاشونه .. وكلما أقبل به على فرد منهم كره أن يقيد به واستعفى ..

فلما انتهى علي من صلاته .. التفت إلى أهله فقال: لشد ما جزعتم من هذا القيد .. شرعه هذا.

ومد رجليه ليقيد به ..

(2)

كان محمد بن عبد الله بن عثمان بن عفان قد أُخذ مع أخوته لأمه من آل الحسن بعد أن زوّج ابنته بإبراهيم بن عبد الله بن الحسن..

وبينما جند أبي جعفر يغلون آل الحسن بقيودهم .. أرسل أبو جعفر في طلبه

فقام محمد بن عبد الله العثماني من جوار أخيه لأمه عبد الله بن الحسن كأنما خلق من فضة .. طويل القامة .. حسن الخلقة .. وعليه من الثياب قميص وطيلسان أخضر ..

فلما وقف بين يدي أبي جعفر قال له أبو جعفر: يا ديوث.

محمد العثماني: سبحان الله .. والله لقد عرفتني بغير ذلك صغيراً وكبيراً.

أبو جعفر: فمما حملت ابنتك؟ وقد أعطيتني الأيمان بالطلاق والعَتَاق ألاّ تَغُشّني ولا تمالِيء عليّ عدواً.. ثم أنت تدخل على ابنتك متخضبة متعطرة، ثم تراها حاملاً فلا يروعك حملها .. فأنت بين أن تكون حانثاً أو ديوثاً .. والله إني لأهم برجمها.

محمد العثماني: أما أيماني فهي علي إن كنت دخلت لك في أمر غش علمته .. وأما ما رميت به الجارية، فإن الله أكرمها بالولادة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. ولكني ظننت حين ظهر حملها أن زوجها ألمّ بها على حين غفلة منا.

لم تزد تلك الكلمات أبا جعفر إلا غضباً وغيظاً.. فأراد أن يشفي غيظه.. وأن يغيظ عبد الله بن الحسن ويدخل الهم عليه بتعذيب أخيه لما كان يعلم من محبة عبد الله بن الحسن لأخيه محمد بن عبد الله العثماني..

فنادى على جنوده:

- شقوا ثياب هذا الفاسق.

فبادر الجنود إلى شق ثيابه .. فلم يبق عليه إلا سترة رقيقة تستر عورته .. ثم أقبل الجلاد فجعل يضربه بسوطه بكل ما أوتي من قوة .. حتى اسود جسمه بعد بياضه .. وأصابه سوط في وجهه .. فتأوه محمد العثماني



وقال للجلاد:

– ويحك أكفف عن وجهي .. فإن له حرمة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أبو جعفر: عليك بالرأس .. الرأس .. الرأس.

فضربه الجلاد ثلاثين سوطاً في رأسه .. وأصاب سوط منها عينه .. فسالت على خده.

فلما تفجر جسمه بالدماء والتصق الثوب الرقيق بجسمه .. أمر أبو جعفر بخشبة على طول محمد .. فشد فيها عنقه ويداه وحمل إلى خارج حجرة أبي جعفر وقد لصق ثوبه بعورته حتى كادت أن تظهر..

فأسرع إليه غلامه يقول له:

– بأبي أنت وأمي .. ألا ألوثك بردائي.

فقال له محمد بن عبد الله العثماني: بلى .. جزيت خيراً .. فو الله لشفوف إزاري أشد علي من الضرب الذي نالني.

وبعد أن ألقى الغلام عليه الثوب .. أُخذ إلى أصحابه في سجنهم.

فلما رآه عبد الله اشتد حزنه .. وجعل يسترجع .. ولا يدري كيف يخفف الآلام عن أخيه .. فقام إليه جماعة من بني الحسن يريدون أن ينزعوا عنه ثوبه.. فإذا بالثوب قد التصق .. فتأوه محمد بن عبد الله لشدة الألم فقال عبد الله لأصحابه:

– لا .. دعوه .. هل من رجل يأتينا بزيت؟

فأعطاه بعضهم زيتاً .. فسل الثوب سلاً بعد أن عالجه بالزيت ..

وبلغ العطش بمحمد بن عبد الله العثماني مبلغه فجعل ينادي بصوت ضعيف: هل من شربة ماء .. ماء؟

فتوجه عبد الله بن الحسن نحو جمع من الناس كانوا قد اجتمعوا يتفرجون عليهم.. وصاح فيهم:

– يا معشر الناس .. من يسقي ابن رسول الله شربة ماء؟

فلم يجرؤ أحد من الناس أن يفعل ذلك .. وتحاماه جميع الناس حتى أقبل رجل خراساني بماء .. فسقاه .. وبينما عبد الله يحاول أن يخفف عن أخيه آلامه .. ويداوي جروحه، خرج أبو جعفر من حجرته .. فركب في محمل على بغلة شقراء.. وهو في شق المحمل ووزيره الربيع يعادله في الشق الأيمن ..

فلما أشرف أبو جعفر على المساجين .. إلتفت إليه عبد الله قائلاً:

– يا أبا جعفر .. ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر.

فرد عليه أبو جعفر أسوأ رد وقال له: إخسأ يا هذا..

ثم تفل عليه، وانصرف لا يكاد يبالي بهم .. أو ينظر إليهم أو يرحم حالهم.

فلما توارى أقبل عليهم سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس– عمّ أبي جعفر، وصهر آل الحسن .. فلما

أشرف عليهم .. قام إليه عبد الله بن الحسن على سبيل المستغيث فقال له:

- يا أخي .. صهري بك صهري .. ورحمي بك رحمي فيما ترى.

سليمان: والله لكأني أنظر إلى عبد الله بن علي حين حال أبو جعفر الستر بيننا وبينه وهو يشير إلينا: أيّ شيء هذا الذي فعلتم بي؟! فلو كان عافياً عن أحد عفا عن عمه.

فأيقن عبد الله أنها النهاية وأن أبا جعفر لن يرعى لهم حرمة ولا قرابة .. ولن يألو جهداً في إيذائهم.

***

وبعد أيام مر أبو جعفر على السجن ورأى جمعاً من الناس ينظرون إلى آل الحسن في قيودهم..

أبو جعفر: ما بال هؤلاء الناس يقفون هنا؟

الربيع: إنما ينظرون إلى محمد بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن المسمى بالديباج الأصفر لشدة حسنه..

أبو جعفر: أفي آل الحسن ما يجعل الناس ينظرون إليهم .. ادخلوا علي هذا المسمى بالديباج الأصفر.

فلما نظر إليه أبو جعفر قال له:

- أنت الديباج الأصفر؟

محمد بن إبراهيم: نعم.

أبو جعفر: أما والله لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً من أهل بيتك .. ادخلوا الأسطوانة التي في مكان كذا..

فلما أدخلت أمر بإفراغها .. فلما صارت مفرغة أمر بمحمد بن إبراهيم فأدخل فيها .. فبنيت عليه وهو حي ..

(3)

وبمثل هذه الجرائم كان أبو جعفر يرسل رسالة صامتة إلى عبد الله بن الحسن .. مضمونها أنه لا رحم ولا قرابة يمكن أن تراعى ..

وبأن كل من تسول له نفسه أن يقف في طريقه فإن الموت هو مصيره ..

كان أبو جعفر يريد بهذا أن يهز تلك الشخصية التي بلغت من الإباء والعزة .. أن تقطن في السجن عاماً بعد عام .. دون أن يرى منها خضوعاً أو ذلة بين يدي سلطان جائر .. أو دخول في معصية الله .. حتى ولو مجرد السكوت والمداهنة ..

كان شعار عبد الله {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}. ويرفع هذا الشعار الذي لا يقبل المساومة..

بل تجاوزت هذه العبارة إلى: (ربِّ .. الموت والتعذيب والنشور .. أحب إلي مما يدعونني إليه من معاصيك ..)..

وبهذا شيد عبد الله في قلب أبي جعفر قصراً من اليأس .. أن ينال شيئاً من عبد الله.. إلا أن كبرياء



وجبروت أبي جعفر ما كان ليجعله يعترف بضعفه..

أبو جعفر – وقد خلا ببعض خواصه: كلما رمت من عبد الله ذلة زدته عزة .. فمتى يأتي خاضعاً ذليلاً؟

أحد خواصه: استذله بأهله من ولده وبني عمه فإنه أشفق الناس بهم.

أبو جعفر: إذن أفعل .. بل أدخل بينهم الخلاف أو أسلب منه ثقة أهله .. لقد بلغني أن موسى أحب ولده إليه .. ولا أراه يفرط فيه .. ولم يبق معه سواه..

وجعل أبو جعفر يتمتم ببعض كلمات غير مفهومة ورفع صوته بالضحك، ثم حدث نفسه قائلاً:

– إن عبد الله لا يقدر على فراق ولده موسى .. فإذا ساوم إخوته أبنائهم كرهوا ذلك منه .. ووقع بينهم الخلاف.

ثم صاح بأحد غلمانه:

– يا غلام إذهب إلى عبد الله في سجنه وأبلغه أن يرسل إليّ أحدهم وأعلمه أنه غير عائد إليه أبداً.

الغلام: أمر مولاي.

وانطلق الغلام من ساعته نحو السجن فلما أقبل على عبد الله قال له:

– أمير المؤمنين يقول لك .. أرسل إليه أحدكم وأعلم أنه غير عائد إليك أبداً.

عبد الله: إنا لله وإنا إليه راجعون .. ألا يكفيه ما فعل بنا حتى يفجعنا بقتلنا.

نهض جماعة من شباب بني الحسن كل يريد أن يفدي الآخر بنفسه .. وجعل كل منهم يعرض نفسه على عبد الله .. فجعل يردهم بكلام لين لطيف ..

عبد الله: جزاكم الله خيراً من أهل بيت .. إني أكره أن أُفجع أهلكم بكم ..

ثم إلتفت إلى ولده وقرة عينه .. ومن يرى فيه ملامح الغائبين من ولده قائلاً:

– ولكن اذهب أنت يا موسى{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً}.

وهكذا كان عبد الله الكامل يعيش للباقيات الصالحات فقط ..

وأُخذ موسى وأُسرع به إلى أبي جعفر .. فلما رآه وعلم أنه قد خاب أمله قال له أبو جعفر:

– لا أنعم الله بك عيناً .. السياط يا غلام.

وصبَّ أبو جعفر غضبه على عبد الله بضرب ولده موسى .. فجعلوا يضربونه حتى أغمي عليه .. فما أفاق حتى كان قد وضع بين يدي أبي جعفر..

أبو جعفر: أتدري ما هذا؟ هذا فيض فاض مني .. فأفرغت منه سَجْلاً لم أستطع رده ومن ورائه الموت أو تُفتَدى منه.

موسى: يا أمير المؤمنين .. والله ما كان لي ذنب وإني لمنعزل عن هذا الأمر.

أبو جعفر: فانطلق فأتني بأخويك.

موسى: يا أمير المؤمنين .. تبعثني إلى رياح بن عثمان .. فيضع علي العيون والرصدة ويعلم ذلك أخواي .. فيهربان مني.

أبو جعفر: أكْتُب إلى رياح أن ليس له عليك سلطان .. ولكني أُرسل معك من يكتب إلي بأخبارك...

وأرسل أبو جعفر إلى عبد الله من يخبره بذلك.

فعلم عبد الله بما أراده أبو جعفر من موسى .. فأرسل إلى أبي جعفر أن يرسل إليه موسى .. حتى يكتب معه إلى محمد وإبراهيم أن يأتياه.

فلما وصل الرسول إلى أبي جعفر فرح بذلك واستبشر وأخذ يحدث نفسه قائلاً:

– الآن نلت ما أريده من عبد الله .. فقد ضاق به سجنه حتى عرض علي يكتب إلى ولده..

ثم قال لشرطته: دعوا موسى يذهب إلى أبيه .. ودعوه فليكتب له رسالة إلى محمد وإبراهيم..

وكتب عبد الله الرسالة .. ثم اقترب عبد الله من ولده موسى وهمس في أذنه قائلاً:

– أبلغهما فلا يأتيانه أبداً .. فإن لم تستطع تكليمهما .. فأنشد قائلاً:

بني أمية إني عنكم غان — وما الغنى غير أني مرعش فان

بني أمية إلا ترحما كِبري — فإنما أنتما والثكل مثلان

فإذا حدثتهما بذلك فإنهما يفهمان..

كان عبد الله الكامل يخاف أن يعلم محمد وإبراهيم بما أهلهما فيه من الشدة .. فترق قلوبهما .. فيعجلا في أمرهما..أو يسلما نفسيهما إلى أبي جعفر لينجو أهلهما.

***

وأعيد موسى إلى المدينة ظناً منهم أنه سيكون طعماً لمحمد وإبراهيم وعيناً لأبي جعفر عليهم ..

فكان أبو جعفر بهذا أعمى الناس بصيرة .. فكيف للأخ أن يسلم أخاه؟! ..

بل كيف للأخ أن يبيع حياته وحياة إخوته ..

ومن يضمن لموسى إن دلهم على أخويه أن يكون في ذلك نجاته؟..

ونزل موسى في بيت مروان .. يخرج منه صباحاً فلا يعود إلا ليلاً .. يتحين الفرصة للقاء إخوته .. ينقل



إليهم ما خفي عنه من أحوال أهلهم ..ويبحث عن أهل الحاجة من أهله الذين غاب عنهم رجالهم وساء حالهم .. وضاقت معائشهم .. وامتنع الناس من إعطائهم .. إما خوفاً وفرقاً من أبي جعفر .. أو بغضاً وحسداً ..

فكان مقامه في المدينة رحمة من الله لأهل بيت النبوة .. وغيظاً لرياح وأعوانه .. فكان رياح لا يتجاسر أن يعرض له في طريق ولا أن يمنعه من شيء أراده ..

(4)

جعل أبو جعفر فترة مقامه في مكة والمدينة يتلمس أخبار محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن.. فدخل عليه يوماً عمه عيسى بن علي .. فأسر إليه حديثاً ..

عيسى: لقد بلغني أن عبد الرحمن بن أبي الموالي يعرف مكان محمد وإبراهيم وهو أكثر الناس اختلاطاً وحباً لبني هاشم .. فارسل من يأتيك به.

أبو جعفر: أهو هو؟

عيسى بن علي: نعم .. هو هو يا أمير المؤمنين .. وإن أنت شددت عليه أخبرك بمكانهما.

فأسرع أبو جعفر في طلب عبد الرحمن ..

فلما دخل عبد الرحمن على أبي جعفر بدأه بالتحية..

عبد الرحمن: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

أبو جعفر: لا سلام عليك .. أين الفاسقان ابنا الفاسق؟ .. أين الكاذبان ابنا الكاذب؟

عبد الرحمن– في ثبات الرجل المؤمن بموقفه: يا أمير المؤمنين .. هل ينفعني الصدق عندك؟

أبو جعفر: وما ذاك؟

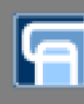
عبد الرحمن: امرأتي طالق إن كنت أعرف مكانهما.

أبو جعفر: كذبت .. السياط يا غلام.

ونزلت نقمة الظالمين على ذلك الضعيف المسكين .. فضرب أربعمائة سوط .. واستنقذ الله عبده المسكين بغيبوبة، لم يشعر بعدها بما يفعل به .. ولم يفق إلا على صليل أصوات حديد قيود عبد الله بن الحسن وهو يداوي جراحه ويغسل عنه الدماء .. ودموعه تخضب تلك اللحية البيضاء .. التي تزين وجه شيخ يشع النور منه، يكاد المرء أن ينسى جميع آلامه .. كلما نظر إليه ..

***

وبعد أيام أصدر أبو جعفر أمره إلى أبي الأزهر بحمل المساجين من بني هاشم ومعهم محمد بن عبد الله العثماني إلى الهاشمية في العراق ليكون سجنهم في قصر ابن هبيرة ..



وبدأت القافلة سفرها بخطى حثيثة نحو العراق .. وبعد أيام من السفر ظهرت منارات وبيوت النجف على بعد ..

وأخيراً .. أشرفت القافلة على مرقد الإمام علي (ع) والمسجد الأعظم ..

وأشرأبت أعناق آل الحسن .. يتطاولون لكي يروا قبر أبيهم أمير المؤمنين (ع).. وسبحوا في ذكريات الأمس الغابر .. يوم كان أمير المؤمنين يقود الجيوش وعلى يمينه ابن عمه عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة .. فكان أشد الناس طاعة لأمير المؤمنين (ع).. فكيف لو اطلع ابن عباس على أحفاده ورأى ما يفعلون بأحفاد ابن عمه ومولاه أمير المؤمنين (ع)؟!.

وتأوّه ذلك الشيخ الطاعن في السن .. الذي أكلت السجون والأحداث ما لان من جسمه .. وتركته كهلاً .. قد ابيض شعر رأسه ولحيته ..

ثم التفت ينظر من بعيد إلى مرقد جده والبيوت التي تكتنفه ..وتساءل في نفسه: -أما في هذه القرية من يمنعنا من هذا الطاغية؟ ..

كان عبد الله يحدث نفسه بتلك الكلمات .. وهو يرى الأمة تقف موقف المتفرج وكأن لا شأن لهم بما يحدث ..

ولكن كلماته تلك كانت قد تجاوزت القافلة إلى شابين من أهل النجف كانا على مقربة منه ..

فأسرعا إلى سلاحهما .. ثم أقبلا نحو الموكب مسرعين وقد أخفيا سيوفهما تحت ثيابهما.. فلما اقتربا من مركب عبد الله بن الحسن قالا له:

- قد جئناك يا ابن رسول الله .. فمرنا بالذي تريد.

جعل عبد الله ينقل بصره بين القيود التي في أيدي وأقدام بني هاشم .. ثم ينظر إلى الشابين .. ويسرع ببصره إلى تلك الجموع التي قد أحاطته من جنود بني العباس.. فقال لهما:

- قد قضيتما ما عليكما .. ولن تغنيا في هؤلاء شيئاً .. فانصرفا ..

فولى الشابان وأعينهما تفيض بالدمع حزناً وكمداً على آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يجدا ما يفعلان في سبيل نصرتهم.

وأكملت القافلة مسيرتها .. حتى دخلوا الهاشمية .. فإذا بالسجون قد هيئت لاستقبالهم .. ففتح لهم سرداب مظلم تحت القصر .. فأدخلوا فيه .. لا يكاد أحدهم يرى أخاه لشدة الظلام ..

***

وكان أبو جعفر قد عاد بعد أداء فريضة الحج خائباً .. منكسر البال .. كئيب النفس..لا يستقر به حال ولا يقر له قرار .. قد ضاق به ملكه .. وتنغص عيشه.. لا يدري أي طريق يسلك في أمر محمد وإبراهيم..!



فقد بذل الأموال فلم تُجْد شيئاً.. ونشر الجواسيس في كل بلاد .. واستخدم كل طرق الإرهاب .. ولم يداخله شك في قريب ولا بعيد .. إلا وكان مصيره السجن أو القتل..

فماذا يمكن أن يفعل؟! ..

فجعل يلجأ إلى طريق أخرى .. فقد أشاع في الناس أنه يمتلك مرآة إذا نظر فيها علم عدوه من صديقه .. وفي أي بلد ينزل وشاع هذا الخبر .. وهاب الناس أمر أبي جعفر ..

ثم جعل أبو جعفر يجمع السحرة والمنجمين يأمرهم أن ينظروا في النجوم ليعرفوا هل قد آن لملكه انقراض .. ويعرفون له موقع محمد بن عبد الله ..

فكانوا لا يكفون عن ضرب رمالهم .. والنظر إلى النجوم .. فإذا أدْلوا بشيء من كذبهم إلى أبي جعفر .. أرسل إلى واليه على تلك المنطقة أن أرسل بطلب محمد في مكان كذا وكذا ..

وبينما هو على مثل هذا الحال .. إذ أقبل إليه رسل والي المدينة .. فأمر بإدخالهم..

أبو جعفر: ما خبر المدينة وأهلها؟

أحد الرسل: هذه رسالة رياح بن عثمان المري.

تصفح أبو جعفر الرسالة فإذا فيها:

((إلى أمير المؤمنين .. من خادمك المطيع رياح ..

لقد أبقيت لنا موسى بالمدينة .. ليكون عيناً لإخوته علينا .. فماذا ترى أن نفعل؟)) ..

ثم طوى الرسالة وقال لكاتبه: أكتب إلى رياح: ((إذا وصل إليك كتابي .. فكبل موسى بالحديد واسله إلى العراق)).

***

وفي سجن ابن هبيرة ..

عبد الله بن الحسن: أفيكم من يعرف أي وقت هذا .. هل الليل قد دخل؟! .. أم لا زال الوقت نهاراً.

الحسن: ومن أين لنا أن نعرف الليل من النهار .. وليس في هذا السرداب نافذة تطل منها الشمس أو يرى منها الضوء ..

إبراهيم: فكيف نعرف وقت الصلاة فنؤديها؟

علي العابد: إن وقت المغرب قد دخل فقوموا بنا لنصلي.

عبد الله: وكيف عرفت هذا يا ابن أخي؟ .. وقد إنْبَهم على جميع أهل بيتك في هذا السجن المظلم.

علي العابد: كنت أعتاد أن أقرأ أورادي.. وأتلو من القرآن كذا وكذا من بعد صلاة العصر فلا أتمها حتى يدخل وقت صلاة المغرب .. وها أنا قد أتممتها.



وهكذا كان الجميع في ذلك السجن المظلم يؤدون فروضهم .. لا يجدون ما يدلهم على الوقت إلا رواتب كان يؤديها علي العابد بن الحسن المثلث.

***

وطالت أيام السجن .. وساءت أحوالهم .. وضعفت أبدانهم .. حتى صار الرجل منهم لا يجد صعوبة في أن يخلع قيوده .. فكان الجميع يخلعون قيودهم فإذا سمعوا صوت قادم أعادوها.. إلا علي العابد فإنه كان لا يخلع قيده ولا يحله عن قدمه .. فلما أثرت القيود في ساقيه لكثرة قيامه وقعوده في صلاته أقبل عليه أبوه وبني أعمامه..

الحسن المثلث: يا بني ما منعك أن تفك قيودك؟

علي: لا والله لا أخلعه أبداً حتى أجتمع أنا و أبو جعفر عند الله فيسأله لم قيدني به؟

فبكى الجميع .. وتوجهوا إلى الله يدعونه أن يعجل بفرجه..

فجعل علي يرفع صوته بالدعاء قائلاً: (اللهم إن كان هذا سخط منك علينا فاشدده حتى ترضى).

عبد الله بن الحسن: ما هذا يرحمك الله؟ أتدعو لنا أم علينا .. ألا ترى ما نحن فيه من البلاء؟ .. ألا تدعو الله عزّ وجلّ أن يخرجنا من هذا الضيق والبلاء؟! ..

علي: يا عم .. إن لنا في الجنة درجة لم نكن لنبلغها إلا بهذه البلية .. أو أعظم منها .. وإن لأبي جعفر في النار موضعاً لا يبلغه حتى يبلغ منا مثل هذه البلية أو أعظم منها.. فإن شئت أن تصبر فما نوشك فيما أصابنا أن نموت فنستريح من هذا الغم .. كأن لم يكن منه شيء .. وإن تشأ ندع ربنا أن يخرجنا من هذا الغم ويقصر بأبي جعفر غايته التي له في النار، فعلنا.

عبد الله: لا .. بل نصبر .. فاسمع أنت ومن معك من أهلك في هذا السجن ما أخفيت عنكم.

علي: ما ذاك يا عماه .. أهو أشد مما نحن فيه؟!

عبد الله: حدثتني فاطمة بنت علي الصغرى عن أبيها علي بن أبي طالب (ع) عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((يدفن من ولدي سبعة بشاطئ الفرات .. لم يسبقهم الأولون ولا يلحقهم الآخرون)) ..

علي: ولكن نحن ثمانية؟!

عبد الله: هكذا سمعته.

فعلم الجميع أنهم مقتولون وأن هذا السجن هو قبرهم .. فجعلوا من السجن مسجداً لا يسمع فيه ولا يرى إلا قائماً يصلي أو راكعاً أو ساجداً .. أو تالياً للقرآن أو مناجياً ومستغفراً .. كل يرجو أن يقبل على الله بصحيفة قد ضاقت بالأعمال الصالحة.

فما أشقى يداً شاركت في قتلهم!! (وعند الله تجتمع الخصوم)



الباب الثالث

الفصل الأول

(1)

كان رسل الإمام محمد بن عبد الله (ع).. يجوبون المشرق والمغرب يأخذون له البيعة من الناس .. فقد أرسل ولده علياً إلى مصر .. وأخاه إدريس إلى المغرب .. وأخاه إبراهيم إلى البصرة .. وآخرين إلى خراسان واليمن .. فأتته البيعة من سائر الأمصار .. وبينما هو يكتب الرسائل ويحصي أصحابه .. أقبل عليه رسول من مصر ..

محمد بن عبد الله: أهلاً بك يا أخي .. ما حال الناس هناك؟

الرجل: في خير يا ابن رسول الله .. لا ينتظرون إلا ظهورك .. ولكن أرجو أن لا أفجعك .. فقد أخذ ولدك علي بن محمد .. ولم أسافر من مصر حتى كانوا قد رحلوا به إلى أبي جعفر.

محمد بن عبد الله: إنا لله وإنا إليه راجعون .. عسى أن لا يفشي شيئاً من أمرنا فينال شيعتنا أذى بسبب منا.

وفي تلك اللحظة دخل عليه رسول شيعته بالمدينة ..

محمد بن عبد الله: وأنت ماذا تحمل من أخبار المدينة؟

الرسول: لقد خرجت من جهة المدينة .. وأخرج أخوك موسى من الجهة الأخرى مكبلاً بالحديد .. يريدون به الخروج إلى العراق .. وإنه إن دخل على أبي جعفر قتله.

فتكلم بعض أتباعه ممن حظر المجلس قائلاً:

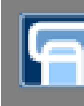
– يا ابن رسول الله .. فالتعجيل في الخروج .. وإظهار أمرك .. قبل أن يفني هذا الطاغية أهلك .. فإن الناس قد بايعوك.

محمد بن عبد الله: إني قد واعدت الناس على يوم تخرج فيه جميع الأمصار .. فإن خرجت اليوم تكالبت جنود أبي جعفر عليّ من كل حدب وصوب.

الرجل: إن جيوش أبي جعفر بالعراق مشغولة .. فإذا خرجت اليوم لم يأتك حتى يثور دعاتك في سائر البلدان .. فتتفرق جموعه ..

محمد بن عبد الله: ننظر في الأمر إن شاء الله .. فيكون خيراً.

***



كان فقيه المدينة مالك بن أنس قد بايع الإمام محمد بن عبد الله واعتذر إليه من الخروج معه في القتال عند ظهوره لما للناس عنده من الأمانات ..

فأقبل فقيه المدينة يوماً على أخ له كان يداوم زيارته ..

كان هذا الأخ هو ابن هرمز .. وكان عالماً فاضلاً .. لا يُقدّم عليه أحد في المدينة .. وكان طاعناً في السن .. فلما جلس مالك بن أنس إليه ..صاح أبو هرمز بإحدى جواريه قائلاً:

- يا جارية .. أسدلي الستار .. وأغلقي الباب .. واتركيني مع مالك.

فلما خلي المكان أقبل ابن هرمز يذكر ما صارت إليه الأمة من الفساد والبعد عن الدين وكثرة البدع وظلم الأمراء وفسادهم ..ثم بكى حتى ابتلت لحيته.. ثم قال:

- والله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..والله ما صلح أمر أولها إلا بإتباع محمد وآل محمد.

مالك: فهذا محمد بن عبد الله يدعو الناس إلى نفسه .. ولكنك والله قد أصبحت شيخاً ما فيك شيء فتنصر به..!

ابن هرمز: قد علمت .. ولكن لعل جاهلاً يراني .. فيقتدي بي.

(2)

شاع في الناس قرب خروج محمد بن عبد الله .. فأسرع أهل المدينة يشترون الطعام ..مخافة أن يحصرهم أبو جعفر .. فلا تصلهم تجارة مصر والشام ..

في حين خاف محمد بن عبد الله أن يزداد التعذيب في ولده علي .. فيضطر إلى ذكر بعض أسماء من بايعه .. فيعاجلهم أبو جعفر قبل خروجه، فأمر محمد بن عبد الله بتجميع أعوانه من قبيلة جهينة وبني شجاع .. وهم خُلّص شيعته .. وذلك في أول ليلة من رجب سنة 145 هجرية فخطبهم ووعظهم وحثهم على الجهاد وجعل ينظم صفوفهم .. وقد أضمر في نفسه أن يدخل المدينة ليلاً ..

ولم تكن تلك الديار تخلو من عين لرياح بن عثمان والي المدينة .. فقد انطلق أحدهم نحو رياح ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كان الرجل يطرق باب رياح بن عثمان ..

رياح: ما الخبر يا هذا؟

الرجل: إن محمداً خارج في هذه الليلة فخذ حذرك.

اشتد خوف رياح وارتعدت فرائصه .. واضطرب أمره .. فأرسل إلى والي الصدقات محمد بن عبد الله بن عبد العزيز.. وابن مسلم بن عقبة المري .. فلما دخلا عليه ..

رياح: ماذا أفعل إن خرج محمد الليلة؟ .. ماذا أفعل؟

محمد بن عبد العزيز: إرسل إلى بني هاشم فاجمعهم عندك هنا .. فلا يجد محمد من ينصره.

فأرسل رياح من يأتي بمن في المدينة من بني هاشم ..فجمعهم عنده في المقصورة .. وكانوا جميعاً من ولد الحسين(ع)..

وصلى رياح في داره ..ثم أرسل إلى محمد بن عمران قاضي المدينة .. فلما دخل عليه ومعه أخوه عبد العزيز بن عمران ..ألقى التحية على رياح.. في حين كان رياح شارد الذهن واجماً يفكر في الأمر.. ورجع بذاكرته إلى الماضي القريب فتذكر ليلة أن دخل إلى عبد الله بن الحسن في سجنه فقال له: (إنك لأزيرق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة) لذلك تملك قلبه الفزع وسيطر عليه الخوف والقلق فلم يشعر بما حوله.

محمد بن عمران: كيف أمسى الأمير أصلحه الله؟

وبصوت ضعيف ليس فيه شيء من غطرسة الأمس ..أجابه رياح: بخير.

وصمت طويلاً ..ثم انتبه من غفلته، وجعل يحدث نفسه: إيهاً يا أهل المدينة!!.. أمير المؤمنين يطلب بغيته في شرق الأرض وغربها ..ويخان بين أظهركم.. اقسم بالله لئن خرج لا أترك منكم أحداً إلا ضربت عنقه.

محمد بن عمران: أصلحك الله ..أنا عذيرك منه .. هذا والله هو الباطل.

رياح: فأنت أكثر أهل المدينة عشيرة ..وأنت قاضي أمير المؤمنين .. فادع عشيرتك.

أسرع القاضي يريد امتثال أمر الوالي .. ولكن رياح كان قد امتلأ قلبه ريبة وخوفاً من كل الناس ..

رياح: اجلس يا محمد وليذهب أخوك.

ولم تمض لحظات حتى كان جموع بني زهرة على باب رياح .. يحلون سلاحهم.

محمد بن عمران: هذه عشيرتي ..قد أقبلت فلتدخلهم ليكونوا معك فتأنس بهم.

رياح –وقد صار أشبه بالأبله الذي لا يفقه ما يقول ولا ما يفعل:هيهات ..تريد أن تدخل عليّ الرجال طروقاً في السلاح .. قل لهم فليجلسوا في الرحبة .. فإذا حدث شئ فليقاتلوا ..

***

ولم تمض ساعة من الليل بعد صلاة العشاء .. حتى علا صوت التكبير في أطراف المدينة .. وبلغ صوت التكبير دار مروان ..

فطرق أذني رياح .. ومن في مجلسه .. فقام ابن مسلم بن عقبه .. وقد أيقن بخروج محمد بن عبد الله .. فاتكأ علي سيفه ..

وكان آل محمد من ولد الإمام الحسين لازالوا يقفون بين يدي رياح يمنعهم من العودة إلى ديارهم ..

ابن مسلم: أطعني في هؤلاء فأضرب أعناقهم ..

فمال رياح إلى هذا القول .. ولكنه كان يفرغ سمعه لمعرفة جهة التكبير .. وقبل أن يجيب على إبن مسلم



تكلم الحسين بن علي بن الحسين بن علي فقال:

– والله ما ذاك لك .. إنّا على السمع والطاعة.

واقترب صوت التكبير وصار له في أذني رياح وقع كوقع الرماح .. فشغله ذلك عما يدور في مجلسه من الكلام..

ولما أيقن باقترابه .. انتزع نفسه من مجلسه .. وجمع عباءته .. ونزل من كرسي إمارته يجري لا يلوي على شئ .. وتبعه محمد بن عبد العزيز .. ودخلا الدار فارّين .. قد تملك الخوف على قلبيهما .

وكتب الله للبقية الباقية في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من آل محمد النجاة من سيف رياح الغاشم ..

فمنذ أن دخل المدينة .. ما ترك لآل محمد من شيخ إلا أهانه .. أو قتله .. ولا شاباً إلا وشرده أو سجنه .. ولا مالاً إلا وأخذه لنفسه .. أو باعه، حتى يتّم أطفالهم .. وشرّد رجالهم .. وأجاع وعرّى نساءهم ..

فمن ذاك الذي يشفي غليل قلوبهم؟..

(3)

كان شعار محمد بن عبد الله: (أحد .. أحد) .. يرفع في كل زقاق وفي كل ساحة.. فينسل إليه الأوفياء من دورهم ومن بين أهليهم.. قد حملوا أسلحتهم.. وأعدوا أنفسهم للموت بين يديه .. ولم تمض ساعات من إعلان الثورة .. حتى كان ما يزيد عن مائتين وخمسين مقاتلاً يقفون بين يدي محمد بن عبد الله..

وبدأ محمد بن عبد الله تحركه .. وخلفه أصحابه وجعل ينادي:

– أين خوّات بن بكير، وعبد الحميد بن جعفر؟ فليكن خوّات قائداً على الرجّالة .. وعبد الحميد وولدي حسن على الحربة ..

ثم جعل يتقدم الناس على بغلةٍ له..

خوات: ألا تأتي دار الإمارة .. فتأخذ هذا الفاسق المسمى رياحاً ..

محمد بن عبد الله: لا والله .. حتى أخرج من في السجن أو أرفع مظلوميتهم ..

وتوجه محمد بن عبد الله نحو السجن .. وأخرج من فيه .. ثم توجه إلى دار الإمارة .. فلما بلغها جعل خاصة رياح يقاتلون عنه .. فجعل ينادي أصحابه:

– لا تقتلوا .. لا تقتلوا ..

فلما أحاط بدار الإمارة .. صدت دونه الأبواب وأغلقت..

محمد بن عبد الله: أحرقوا باب الخوخه –وهو باب صغير من الباب الكبير... فأحرق.

ومنعت النار المهاجمين من الدخول .. فاقبل رزام خادم ابن القسري وكاتبه .. فوضع درعه على النار .. ودخل الدار .. وكان قد أخرجه الإمام من السجن مع محمد بن خالد القسري وأخيه النذير بن خالد..

وهرب كل من في الدار –خرجوا من دار عبد العزيز من الحمام ..

ولم يتمكن رياح من اللحاق بهم .. فصعد إلى مكان مشرف من دار مروان .. وهدم الدَّرَج حتى لايصل إليه أحد ..

فلم يغن ذلك عنه شيئاً .. فقد تسلق أحدهم وأنزله من مكانه .. وأدخل على محمد بن عبد الله ..

الإمام: أين موسى يا رياح؟

رياح: لا سبيل إليه .. والله لقد حدرته إلى العراق.

الإمام: فأرسل في أثره وردَّه.

رياح: قد عهدت إلى الجند الذين معه إن رأوا أحداً مقبلاً من المدينة أن يقتلوه.

الإمام –وهو ينظر إلى أصحابه: من لي بموسى؟

عبد الله بن خضير: أنا لك به.

الإمام: فانظر رجالاً ..

فانتخب ابن خضير رجالاً .. وركبوا وتوجهوا لاستنقاذ موسى من جنود رياح.

وكان الليل قد أوشك على الرحيل ..

فلما أذن المؤذن تقدم الإمام بمن معه نحو المسجد .. يعدون أنفسهم لصلاة الفجر..

وتقدم الإمام فصلى بالناس .. فقرأ{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}.

فلما أتم صلاته صعد المنبر .. فحمد الله وأثنى عليه بكل ثناء جميل .. ثم صلى على النبي وآله .. ثم قال:

أما بعد .. أيها الناس .. فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بناء القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه .. وتصغيراً للبيت الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}..

وإن أحق الناس للقيام بهذا الأمر أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين .. اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك .. وأمنوا من أخفت، وأخافوا من أمنت .. اللهم فاحصهم عدداً واقتلهم بدداً .. ولا تغادر منهم أحدا.

أيها الناس .. إني والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة وشدة، ولكني اخترتكم لنفسي،والله ما جئت هذه وفي الأرض مِصْرٌ يُعبد الله فيه إلا وقد أخذت لي فيه البيعة..



ثم حث الناس على الرجوع إلى الدين وترك المنكرات..

وبعد أن أكمل خطبته نزل .. ثم ولّى على الناس عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير .. وعلى القضاء عبد العزيز بن عبد المطلب بن عبد الله المخزومي..

وعلى الشرطة أبا القلمس عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخزمة ..

وكان كل هؤلاء من خيار الناس وممن عرفوا بالفضل ..

وأقبل عليه علماء أهل المدينة وأهل الرأي فيها يباركون خروجه .. ويعطونه الطاعة من أنفسهم وعشائرهم.

***

أما ابن خضير فقد جعل همه إدراك القافلة التي فيها موسى .. فلما ظهر له قربها منهم .. خرج بأصحابه عن الطريق ثم التوى على القافلة حتى كانه آت من جهة العراق.. فلما رآه حراس القافلة .. نادى بعضهم بعضاً .. هؤلاء رسل أمير المؤمنين إلى رياح ..

فجعل ابن خضير يتقدم مع أصحابه حتى خالط أصحاب القافلة .. فشهروا سلاحهم وأفصحوا عن مرادهم .. وفكوا قيود موسى .. ثم حملوه على فرس .. وتوجهوا به نحو المدينة .. حتى أدخلوه على أخيه الإمام محمد بن عبد الله .. فحمد الله على سلامته .. وشكر لابن خضير ما فعله.

الفصل الثاني

(1)

رغم بُعد المسافة بين المدينة والعراق .. إلاّ أنه كان هناك من جند نفسه لقطعها بسرعة مذهلة ليفوز بالجائزة ..

فقد خرج رجل من آل أويس بن أبي السرح .. فجعل يطوي الفيافي والقفار ويقطع المسافات بسرعة البرق..

ولم تمض تسع ليالٍ حتى كان يطرق أبواب مدينة الهاشمية ليلاً .. وينادي بأعلى صوته: افتحوا فهناك أمر أبلغه أمير المؤمنين ..

فلما دخل قال له ابن الربيع:

– ماحاجتك في هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم؟

الرجل: لا بد لي منه.

ابن الربيع: أعلمنا نعلمه.

الرجل: لا والله حتى أشافهه.

فأسرع الربيع إلى مقصورة أبي جعفر ..

ابن الربيع: رجل يا أمير المؤمنين .. يقول أنه مقبل من المدينة ويريد لقاءك.

أبو جعفر: سله عن حاجته .. ثم أعلمنا.

ابن الربيع: قد أبى إلا مشافهتك.

أبو جعفر: أدخله.

ودخل الرجل.. فسلّم على أبي جعفر ووقف بين يديه وبعد أن خلا به قال له:

- خرج محمد بن عبد الله بالمدينة.

أبوجعفر- وقد أزالت هذه الكلمة خموله وأذهبت النوم عنه: قتلته والله إن كنت صادقاً!! .. أخبرني من معه ..

الرجل: خرج معه ابن خضير وأبو القلمس وابن هرمز وعيسى بن زيد بن علي وأكثر وجوه أهل المدينة.

أبو جعفر: أنت رأيته وعاينته؟!

الرجل: أنا رأيته وعاينته .. وكلمته على منبر مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً.

أبو جعفر: إذاً فادخل ونم في هذه المقصورة .. ولاتكلم أحداً.

وأمسى أبو جعفر قائماً في مكانه لا يجد النوم إلى عينه طريقاً .. يقلب الأمور.. ويفكر فيما هو مقبل عليه .. فلا يدري أيصدق الرجل أم يكذبه.

فلما طلع عليه الصبح .. خرج مع الناس ليخط مدينة بغداد .. فقد كان واعد الناس أن يخرج في ذلك اليوم..

وقبل أن يصل إلى موقعها الذي كان يسير إليه بجسمه وقلبه عنه مشغول .. أقبل رسول سعد بن دينار غلام عيسى بن موسى الذي كان يلي أموال المدينة..

فلما اقترب من موكب أمير المؤمنين .. عرفه فأدناه.

الغلام: خرج محمد بن عبد الله وسجن واليك عليها .. وكسر السجن .. وناداه الناس بأمير المؤمنين.

***

وقع هذا الخبر على أبي جعفر كالصاعقة فاغتم أبو جعفر .. وساء حاله.. وسار في موكبه على ظهر حصانه وهو صامت مطرق ببصره لا يجاوز طَرْفه عرف فرسه ثم نادي بأعلى صوته- وهو لا يكاد يشعر بمن حوله: يا ابن الربيع .. يا ابن الربيع، -وكان قد تأخر عن موكبه ثم قال: عليَّ بأبي العباس -عيسى بن علي فأقبل ابن الربيع وعيسى بن علي حتى وقفا بين يدي أبي جعفرفأخبرهما الخبر..

ابن الربيع: هلك والله.. هلك .. خرج والله في غير عدد ولا رجال يا أمير المؤمنين .. ألا أحدثك حديثاً



حدثنيه سعيد بن عمرو بن جعدة المخزومي؟ .. قال: كنت مع مروان بن محمد يوم الزاب واقفاً .. فقال: يا سعيد .. من هذا الذي يقاتلني في هذا الخيل؟ قلت: عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس .. قال: أيهم هو؟ .. عرِّفْهُ .. قلت: نعم .. رجل أصفر حسن الوجه .. رقيق الذراعين .. رجل دخل عليك يشتم عبد الله بن معاوية حين هزم .. فقال: قد عرفته .. والله لوددت أن علي بن أبي طالب يقاتلني مكانه .. إن علياً وولده لا حظ لهم في هذا الأمر .. وهذا رجل من بني هاشم وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن عباس معه ريح الشام ونصر الشام .. يا جعدة .. تدرين ما حملني على أن عقدت لعبد الله وعبيد الله ابني مروان .. قلت: لا .. قال: وجدت الذي يلي هذا الأمر .. عبد الله، وكان عبيد الله أقرب إلى عبد الله بن عبد الملك .. فعقدت له ..

ثم سكت ابن الربيع وهو لا يشك أنه قد هدأ من روع أبي جعفر ..

أبو جعفر: أنشدك الله! .. أحدثك هذا ابن جعدة.

ابن الربيع: ابنة سفيان بن معاوية طالق مني البتة إن لم يكن حدثني بما حدثتك.

(2)

عاد أبو جعفر من يومه مغموماً .. فقد أهمه ظهور محمد بن عبد الله.. وخشي أن يكون في ذلك نهاية ملكه.. فأحضر المنجمين فضربوا رمالهم .. فلما انتهوا قال لهم أبو جعفر: ماذا وجدتم؟.

الحارث المنجم: يا أمير المؤمنين ما يجزعك منه؟ .. فو الله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يوماً.

وجعل كل من دخل على أبي جعفر يحاول أن يخفف عليه بليته ويُهوِّن عليه الأمر.. ولكن أبا جعفر كان أعرف الناس بمحمد بن عبد الله.. فقد خدمه طويلاً، وسايره زماناً.. فعرف أنه لله ولياً .. شجاعاً أبياً .. وأن قلوب الناس إليه أميل ..

فلما عميت عليه الأمور ذكر عمه عبد الله بن علي الذي كان قد أنزله سجنه منذ أعوام طويلة .. وذكر أن له رأياً لا يخطئ في الحرب .. فأمر بأخوته فجُمِعوا إليه.

فلما استقر آخرهم في مجلسه أخبرهم بأمر محمد بن عبد الله وخروجه .. ثم قال لهم:

- إن هذا الأحمق لا يزال يطلع له الرأي الجيد في الحرب .. فادخلوا عليه فشاوروه .. وتعلموه أني أمرتكم.

فأسرعوا إلى عمهم في سجنه .. فلما دخلوا عليه قال لهم عبد الله بن علي:

- ما جاء بكم جميعاً .. وقد هجرتموني منذ دهر؟!.

- استأذنا أمير المؤمنين فأذن لنا.

عبد الله بن علي: ليس هذا بشيء .. فما الخبر؟



– خرج محمد بن عبد الله.

عبد الله بن علي: فما ترون ابن سلامة صانع؟! .. [يقصد أبا جعفر]

– لا ندري والله .. وقد أرسلنا نستشيرك.

عبد الله بن علي: أخبروه أن المحبوس محبوس الرأي .. فليخرجني حتى يخرج رأيي.

فلما رجعوا إلى أبي جعفر قال لهم:

– إرجعوا إليه وقولوا له: يقول لك أمير المؤمنين: والله لو جاءني محمد حتى يضرب بابي ما أخرجتك .. وأنا خير لك منه وهو ملك أهل بيتك.

فأيقن عبد الله بن علي أن أبا جعفر لا يطلقه .. وكره أن يتحول هذا الأمر عن أهل بيته من بني العباس.. إن بخل على أبي جعفر بمشورته فقال لأخوته:

– اذهبوا إلى أخيكم .. واجعلوه يرحل الساعة .. حتى يأتي الكوفة .. فاجثم على أكبادهم .. فإنهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم .. ثم احففها بالمسالح .. فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه .. فاضرب عنقه.. واكتب إلى مسلم بن قتيبة ينحدر عليك من الري .. .. واكتب إلى أهل الشام فمرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد .. فأحسن جوائزهم.

فلما وصلت هذه المشورة إلى أبي جعفر جعل ينفذها كما أتت لثقته في رأي عمه ومعرفته بشئون السياسة والحرب .. ولأنه فارغ الذهن من أي رأي ..

***

وأقبل بريد الشام يحمل علي بن محمد بن عبد الله بعد أن أمسكه والي مصر وهو يدعو إلى أبيه.. فهمّ أبو جعفر بإرساله إلى سجن ابن هبيرة.. فذكر أبو جعفر فرحة من في السجن من آل الحسن بوصول علي إلى عبد الله بن الحسن ومن معه في سجنه فقال في نفسه: لا والله .. لا يدخل السرور على قلب عبد الله ماحييت..

ثم نادى على ابن الربيع: يا ابن الربيع .. أكتب إلى أبي الأزهري: ((انظر يا أبا الأزهري ماكنت أمرتك به من مذّلة فعجله وأنفذه)) ..

وكان أبو جعفر قد أمر أبا الأزهري أنه متى أتاه كتابه هذا أن يضرب عنق عبد الله بن الحسن ..

وأسرع الرسول بالكتاب ..

أبو جعفر: يا ابن الربيع .. من ترى أشد الناس حباً لأهل هذا البيت .. وكرهاً لنا .. لأفجعه بعبد الله بن الحسن؟.

ابن الربيع: أسمعت يا مولاي ببشير الرحال .. العابد الزاهد ..

أبو جعفر: نعم .. ومثله لا يخفى.

ابن الربيع: إذاً فهو ذاك.

أبو جعفر: فأرسل إليه من يقوده إلى سجن عبد الله .. إذا أيقنت أن ابن الأزهري قد أنفذ أمري في عبد الله، ومن هو خير من عبد الله؟!

***

وأقبل رسول الخليفة إلى أبي الأزهري .. وهو جالس مع رجلين من أصحابه على باب سجن ابن هبيرة.. أحدهما يسمى الشعباني .. والآخر عبد الله بن عمران بن أبي فروة ..

وبعد أن تصفح الأزهري الرسالة.. رماها من يده وأسرع إلى داخل السجن فأخذ الشعباني الكتاب وقرأه..

الشعباني: أتدري يا عبد الله من هو مذلة؟!! ..

عبد الله بن عمران: لا والله.

الشعباني: هو والله عبد لله بن الحسن .. فانظر ما هو صانع به.

ولم يلبثوا إلا لحظات حتى خرج أبو الأزهري وقد نفذ الأمر ..

أبو الأزهري: والله لقد هلك عبد الله بن الحسن.

ثم بقي قليلاً ثم دخل إلى الجسن فرأى علي العابد وقد خر مغشياً عليه بعد أن رأى مصرع عمه عبد الله بن الحسن فظنوا أنه قد مات فخرج أبو الأزهري إلى صاحبيه مكتئباً.

أبو الأزهري: أخبروني عن علي بن الحسن .. أي رجل هو علي العابد؟.

عبد الله بن عمران: أمُصَدَّقٌ أنا عندك؟.

أبو الأزهري: وفوق ذلك.

عبد الله بن عمران: هو و الله خير من تُقِلُّه هذه وتظله هذه .

أبو الأزهري: فقد والله ذهب .

ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى أقبل رسل أمير المؤمنين يحملون بشيراً الرحال ..

الرسول: يا أبا الأزهري .. إن كنت قد أنفذت أمر أمير المؤمنين في عبد الله وابن الحسن.. فأمير المؤمنين يأمرك أن تطلع هذا العابد عليه..

ابن الأزهري: وما شأن ابن الرحال بهم؟! ولكن لا مفر من أمر أمير المؤمنين .. فأدخلوه عليه ليرى ما لا يسره ..

فأُسرع ببشير بن الرحال إلى داخل سجن ابن هبيرة ..

فلما نظر في ساحة السجن رأى ابن رسول الله بالدماء مخضباً .. رأس وجسم مفصولان عن بعضهما .. ودماؤه تجري على التراب .. كأنما لمعانها تسابيح باكية .. تشكو إلى الله ظلم ساجنيها .. فلم تقو بُنية ذلك العابد الورع كثير الصيام على تحمّل هذا المشهد البشع .. ومن يصبر على رؤية دماء آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسفك ظلماً وعدواناً.

فخر مغشياً عليه جوار جثة ولي الله .. فأسرعوا إليه بالماء .. فلما أفاق .. التفت إلى من معه من جنود أبي جعفر وقال له:

- اسمع يا هذا .. لا تخبر أبا جعفر بما لقيت مني .. فإنه إذا علم قتلني.

وخرج العابد بشير الرحال .. وهو يردد عهداً بينه وبين الله .. أن لا يختلف على أبي جعفر سيفان إلا كان مع الذي هو عليه.

وجعل أبو جعفر يقتل ويسجن كل من يشك في ولائه أو يعلم أن له صلة بمحمد وأخيه.

(3)

وفي المدينة كان الإمام قد أمّن الناس .. وضبط أمر المدينة وبدأ يراسل من لم يقبل عليه من أهلها .. ومن وجوه المدينة ..

وأسرع بعض العامة إلى بيت الإمام مالك بن أنس .. فلما دخلوا عليه .. يستفتونه في أمر محمد بن عبد الله .. قال لهم الإمام مالك:

- بايعوه .. والله ما على وجه هذه الأرض خيرٌ منه ومن أهله.

فقال بعضهم: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر.

مالك: إنما بايعتم مكرهين .. وليس على مكره يمين.

وأسرع الناس إلى الإمام محمد بن عبد الله يبايعونه .. فلما تم له الأمر في المدينة جمع أهله .. وأصحابه، ثم قال لهم:

- لقد تم لنا أمر المدينة .. وآن لنا الخروج إلى سائر الأمصار .. لنرفع عنهم تسلط الظالمين .. فقم أنت يا حسن بن معاوية .. فقد وليتك قيادة الجيش .. فسر إلى مكة واعلم أن بها السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس.

الحسن: أرأيت بأن التحم بيننا القتال ما ترى في السري؟.

الإمام: يا حسن .. إن السري لا يزال مجتنباً لما كرهنا .. كارهاً للذي صنع أبو جعفر .. إن ظفرت به فلا تقتله .. ولا تحركن له أهلاً ولا تأخذن له منعاً .. وإن تنحى فلا تطلب له أثراً.

الحسن: يا أمير المؤمنين .. ما كنت أحسبك تقول هذا في أحد من آل العباس.

الإمام: بلى .. إن السري لم يزل ساخطاً لما صنع أبو جعفر..

فأين أين هذا من ذاك؟ .. أين محمد بن عبد الله من أبي جعفر المنصور؟ رجل لا يأخذ أحداً إلا بوزره .. ورجل يحصد الرؤوس لمجرد التهمة.

ثم أشار محمد بن عبد الله إلى أخيه موسى وقال له:

- أنت يا موسى .. اخرج إلى أهل الشام.

فقال محمد بن خالد القسري –وكان قد أُخرج من سجن رياح .. فبايع الإمام وأظهر له الطاعة:

- يا أمير المؤمنين .. إنك قد خرجت في هذا البلد .. والله لو وقف على نقب من أنقابه .. فانهض معي .. فإنما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف.

الإمام: دعنا من هذا يا محمد.

محمد بن خالد: إذاً فاجعل خادمي رزاماً يخرج مع أخيك موسى .. فيكون له عوناً .. فإن لنا في الشام معارف وأنصاراً.

الإمام: لا بأس بذلك .. فاصطحب رزاماً يا موسى.

وبينما الإمام في مجلسه .. أقبل رسل أخيه إبراهيم من البصرة بجرابين مليئين بالسيوف .. فقسمها الإمام في أصحابه.

ولما رأى محمد بن خالد القسري أن الإمام لا يميل إلى رأيه .. أضمر في نفسه الخيانة والخديعة .. فكتب رسالة إلى أبي جعفر .. يطلعه فيها على مواطن الضعف في أصحاب الإمام .. ويعده ويمنيه .. ويطلب منه الإسراع بجيشه إلى المدينة ..

ولم يكد رسوله يخرج من المدينة حتى أدركته شرطة ابن المقلس .. فأخذوا الرسالة .. وأتوا به إلى الإمام .. فجعل يردد: إنا لله وإنا إليه راجعون .. إنا لله وإنا إليه راجعون.

الإمام: أودعوا محمداً السجن .. ولا تؤذوه .. حتى ننظر في أمره.

ثم جعل الإمام يستقبل الناس .. لا يُحجب عنه أحد .. يحدث الصغير والكبير.. ويصلي بالناس الفروض..

ثم يجلس لهم في مسجد رسول الله .. يفتي المستفتي .. ويعطي الفقير .. ويعلم الجاهل .. فكان أشبه الناس بأسلافه.

ولكن المخذلين ما كانوا ليصبروا على مثل هذا الأمر ..

فقد ذهب بعض من له هوى في بني العباس ويخشى على مصالحه بذهاب ملك الظالمين يبث الشائعات في أوساط الناس .. ويذكر الناس بمقالة جعفر بن محمد (إن أبا جعفر يقتل محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم).



فلما أرسل الإمام إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .. يطلب منه البيعة .. أقبل على الإمام وهو في أصحابه وقال له: أنت والله مقتول .. فكيف أبايعك؟

فتركه الإمام دون أن يرد عليه بشيء .. ولم يكرر عليه الطلب.

وتراجع بعض ضعاف النفوس .. ومن يطلب الدنيا للآخرة ..

فلما استقر إسماعيل في داره .. أقبلت عليه بنت أخيه حمادة بنت معاوية بن عبد الله بن جعفر وقالت له:

– يا عم إن إخوتي قد أسرعوا إلى ابن خالهم .. وإنك قلت هذه المقالة فثبّطْت عنه الناس .. أفيقتل ابن خالي وإخوتي؟

إسماعيل: فليكن .. فوالله لا أكف عن نهي الناس عنه.

فلما كان بعد أيام مات إسماعيل .. وكان قد بلغ من العمر مبلغاً كبيراً ..

فظن الناس أن الإمام لا يخرج في جنازته .. ولا يصلي عليه .. فلما سمع الإمام بموته خرج وصلى عليه .. ومشى في جنازته .. وكأن الرجل من خيرة أنصاره ولم تمنعه إساءته إليه من أن يصل رحمه ..

فلما رأى الناس عفو محمد بن عبد الله وتسامحه .. تسابق الناس إليه وإلى بيعته.

كان كل وجوه بني هاشم قد أجمعوا على بيعة محمد بن عبد الله .. إلا رجالاً كان أبو جعفر قد استمال قلوبهم بالأموال أو عرفوا بين أهل المدينة بعدم الصلاح .. فلم يكن إعراضهم عن بيعة محمد بن عبد الله ليؤثر على مكانته في قلوب الناس..

وجعل الإمام يدير أمر المدينة ويراسل وجوه الناس .. حتى لم يبق في المدينة إلا نفر قليل لم يوافوه بالبيعة .. فأمر الإمام أن لا يعرض لهم أحد .. وأن لا يدخل عليهم أحدٌ أذىً لا بقول و لا فعل.

(4)

ولم تمض أيام على ظهور محمد بن عبد الله (ع) حتى أقبل رسول أبي جعفر المنصور إلى محمد بن عبد الله برسالة تحذير ووعيد .. فبدأها .. ((بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله .. {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ من خِلاَفٍ أو يُنفَوْا من الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا من قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ}.. ولك عليّ عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبّعك على دمائكم وأموالكم وأسوغكم ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم، وما سألت من الحوائج وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيءٍ

كان منه أبداً .. فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إليّ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به)).

جعل الإمام يتصفح رسالة أبي جعفر .. فرأى أن الدنيا قد أقبلت عليه من كل ناحية فغاية ما يريد المرء في هذه الحياة أن يعيش بين أهله غنياً آمناً.

ولكن الإمام محمد بن عبد الله (ع) كان قد باع نفسه لله .. فهو ما خرج ليطلب منصباً أو عرضاً من دنيا وقد آل على نفسه إلا أن يكون عوناً للضعيف وفرجاً للمظلوم وغيثاً للملهوف.

فكان جوابه على أبي جعفر أن بعث إليه برسالة قال فيها:

((بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد بن علي ..

بسم الله الرحمن الرحيم {طسم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُو عَلَيْكَ من نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ من الْمُفْسِدِينَ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}..

وأنا أعرض عليك الأمان مثل الذي عرضت علي، فإن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحَظِيتم بفضلنا، وإن أبانا علياً كان الوصي، وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم قد علمتم أنه لا يطلب هذا أحدٌ له مثل نسبنا وشرفنا، لسنا من أبناء اللعناء و الطرداء ولا الطلقاء..

-ثم أطال بما هو فيه حق حتى قال-: ولك الله علي إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك من ذلك و أنا أولى بالأمر منك .. أُوفِ بالعهد .. لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجلاً قبلي، فأي الأمان تعطيني، أمان ابن هبيرة؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي؟ أم أمان أبي مسلم؟! ..)).

وكان أبو جعفر قد أعطى ابن هبيرة، وعمه عبد الله بن علي، وأبا مسلم الخرساني، الأمان والعهود والمواثيق ثم خانهم .. فسجن عمه، وقتل ابن هبيرة، وأبا مسلم.

وطالت المراسلة بين أبي جعفر و الإمام محمد بن عبد الله (ع)..

ولكن هيهات للحق و الباطل أن يجتمعا ..

ولم تصل رسالة الإمام إلى أبي جعفر حتى كانت قد وصلت معها رسالة أخرى آتية من خراسان ..

فدعاة الإمام في خراسان كانوا قد بثوا في الناس دعوته .. وكشفوا للناس عن زيف أبي جعفر وجرائمه ..

فأرسل والي خراسان أبو عون: ((أُخَبِّر أمير المؤمنين أن أهل خراسان قد تقاعسوا عني، وطال عليهم أمر

محمد بن عبد الله)).

فزادت هذه الرسالة أبا جعفر غماً إلى غمه فجعل يفكر في طريق يطفئ بها نار فتنة أهل خراسان .. التي ثارت بالأمس فكان في ثورتها سقوط خلافة بني أمية وعمرها ثمانين عاماً.. فكيف لا تسقط دولة لم يتجاوز عمرها العشرين عاماً؟!

وأتت الرسالة الثانية .. من السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس .. يخبره فيها أن الحسن بن معاوية والي محمد بن عبد الله استولى على مكة ..

والرسالة الثالثة أن إبراهيم بن عبد الله يكاد أن يعلن عن ثورته في البصرة.. بعد أن بايعه أهل العراق..

كاد أبو جعفر أن يصعق .. .. لا بد من طريق .. ولكن أي طريق يسلك؟!.

الإستسلام للحق!! التوبة والرجوع عن جرائمه!! لا .. وجلس يحدث نفسه قائلاً:

- لا وألف لا .. أين استشارة النساء .. وأين لعب صبياننا بها.

كانت هذه النبوءة التي سمعها من لسان الإمام الصادق جعفر بن محمد تسيطر على تفكيره وتعطيه الأمل ..

وبعد أيام مريرة وليالٍ كئيبة .. أخذ أبو جعفر قراره في التمادي في جرائمه.. والحفاظ على ملكه ..

كانت هناك في ذهن أبي جعفر قاعدة، توصل إليها بعد تفكير مرير.. وهي أن قتل ذلك الطموح الخراساني متوقف على قتل مصدر الطموح الذي يتمثل في محمد بن عبد الله بن الحسن .. ولكن كيف الوصول إلى ذلك الرأس؟!! ..

أبو جعفر: يا ابن الربيع .. أريد رأس محمد بن عبد الله.

ابن الربيع: يبلغك الله مرادك يا أمير المؤمنين.

أبو جعفر: أريده بين يدي الآن يا ابن الربيع.

ذهل ابن الربيع وألجم .. فكلمات الخليفة تحمل الإصرار والجدية والوقت ليس بوقت مزاح ..

أبو جعفر: أتظن أهل خراسان ينتظرون حتى نأتيهم برأس صاحب المدينة؟.

ابن الربيع: ماذا تقصد يا مولاي .. والله لقد إلتبس عليّ الأمر! ..

أبو جعفر: قم فأمر ابن الأزهري أن يأتينا برأس محمد بن عبد الله العثماني .. أليس اسمه محمد بن عبد الله.

ابن الربيع: نعم.

أبو جعفر: أليس من أولاد فاطمة بنت الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ابن الربيع: بلى يا مولاي.

أبو جعفر: فهذا ينوب عن ذاك عند أهل خراسان حتى نأتيهم برأس ابن عبد الله بن الحسن.

وما هي إلا لحظات حتى كان محمد بن عبد الله العثماني .. يقف بين يدي أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

أبو جعفر: ما أشتفي من هذا الفاسق من أهل بيت فساق .. أزوجت ابنتك إبراهيم بن عبد الله؟

محمد: لا.

أبو جعفر: أفليست امرأته.

محمد: بلى زوّجها إياه عمها وأبوه عبد الله بن الحسن، فأجزت نكاحه.

أبو جعفر: فأين عهودك التي أعطيتني.

محمد: هي علي.

أبو جعفر: أفلم تعلم بخضاب؟ .. ألم تجد ريح طيب؟.

محمد: لا علم لي .. قد علم القوم مالك عليّ من المواثيق فكتموني ذلك كله.

أبو جعفر: هل لك أن تستقيليني فأقيلك .. وتُحدث لي أيماناً مستقبلة؟

محمد: ماحنثت بأيماني فتجددها عليّ .. ولا أحدثت ما استقيلك منه فتقيلني.

أبو جعفر: السياط يا غلام.

وضرب محمد بن عبد الله العثماني أشد الضرب .. ثم ضربت عنقه واحتز رأسه .. ووضع بين يدي أبي جعفر.

أبو جعفر: أين رسل والي خراسان؟.

فلما أدخلوا عليه قال لهم:

- طُوفوا بهذا الرأس في أنحاء خراسان .. وأعلِمُوا أهل خراسان أني أقسم بأغلظ الأيمان أن هذا هو رأس محمد بن عبد الله .. وأنه ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وخرج الرسل من بغداد يحملون رأس محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان .. ليكون نائباً وبديلاً عن رأس محمد بن عبد الله بن الحسن إلى حين التمكن منه.

وهكذا كان سفك الدماء أمراً مباحاً في سبيل الحفاظ على الملك .. في رأي أبي جعفر وسلاطين الجور..

(5)

كان عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس –ابن أخي الخليفة أبي جعفر المنصور– في حرب في بلاد الري .. فأرسل إليه أبو جعفر أن يقبل إليه ..

فلما حضر مجلسه .. أخبره بخروج محمد بن عبد الله بالمدينة ..

وفهم عيسى مراد عمه أبي جعفر ومطلبه منه .. فبدا على وجهه الكراهة .. وعرف أبو جعفر ذلك ..

فالتفت إلى رجل كان يسمى أبو جعفر بن حنظلة البهراني– وكان صاحب رأي في الحرب ..

أبو جعفر: ما عندك يا ابن حنظلة.

ابن حنظله: أين ظهر؟

أبو جعفر: ظهر بالمدينة.

ابن حنظلة: الحمد لله .. ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح و لا كراع.. ابعث مولى لك تثق به، فلينزل بوادي القرى، فيمنعه من مسيره إلى الشام .. فيموت مكانه جوعاً ..

فالتفت أبو جعفر إلى عيسى .. وقال له:

– يا عيسى .. قم فامض لقتال هذا الرجل.

عيسى: شاور عمومتك.

أبو جعفر: امض يا رجل .. فو الله ما يراد غيري وغيرك وما هو إلا أن تشخص أو أشخص.

عيسى: بل أشخص يا أمير المؤمنين.

أبو جعفر: فاذهب وأعد نفسك حتى يصل إلينا بقية جيش الشام.

وأسرع عيسى إلى مغادرة مجلس الخليفة والخليفة يتبعه ببصره .. فلما توارى عنه .. أفصحت شفتاه بابتسامة ساخرة تنبي عن سريرة خبيثة، وقال –في سخرية بادية:

– والله لا أبالي أيهما قتل صاحبه!.

***

لم يكن أبو جعفر يفكر إلا في نفسه وفي سلطانه فقط .. لا يهمه أن يقضي على أقرب الناس له مادام قد سلم له سلطانه.

أبو جعفر: يا ابن الربيع .. من الذي ينزل قصرنا من أبناء علي بن أبي طالب؟

ابن الربيع: هناك ثلاثة منهم .. من أشد الناس ولاءً لك يا أمير المؤمنين.

أبو جعفر: من هم يا ابن الربيع؟

ابن الربيع: الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، وعلي بن جعفر بن إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر، ومحمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي.

أبو جعفر: كيف هؤلاء وقلوب الناس؟

ابن الربيع: ليس لأحد منهم في قلوب الناس إلا البغض والاحتقار .. فهم من شذ من أهل بيتهم.

أبو جعفر: كيف هؤلاء وأهل بيتهم؟

ابن الربيع: قد باينهم حتى أبناؤهم .. فأبناء الحسن بن زيد من أشد الناس حباً لمحمد بن عبد الله وكذا المرجي بن علي بن جعفر.

أبو جعفر: فأدخلهم عليّ الساعة.

كان أبو جعفر يفكر أن يضرب أهل هذا البيت بعضهم بعض .. فلا يحتج محمد بن عبد الله بقول .. ولا يدعي لنفسه منقبة إلا ويكون في جيش عيسى من هو مثله فيها .. فلما صار الثلاثة بين يديه ..

أبو جعفر: ياحسن .. كأني أنظر إلى ابنيك واقفين على رأس محمد بسيفين عليهما قباءان.

الحسن بن زيد: يا أمير المؤمنين .. قد كنت أشكو إليك عقوقهما قبل اليوم.

وفي سخرية .. نظر أبو جعفر إلى من كان حقيقاً بالاستهزاء .. ثم قال:

– أجل .. أجل فهذا من ذاك. [يشير أبو جعفر إلى ما كان عليه الحسن بن زيد من عصيانه لوالده .. وعقوقه لرحمه .. وخروجه عن طريق أهل بيته].

أبو جعفر: ومن هذا المسمى بالمرجي .. فعل الله به وفعل .. فقد أكثر الناس في ذكره.

علي بن جعفر بن إسحاق: يا أمير المؤمنين ذاك ابني .. والله لئن شئت أن ننتقم منه لأفعلن.

أبو جعفر: بل اخرجوا مع عيسى في جيشه .. وانصحوا الناس بترك البيعة لمحمد بن عبد الله وأخبروهم أنكم أهل بيت لاحظ لهم في الملك.

وفي تلك اللحظة دخل عيسى بن موسى .. فتوجه إليه أبو جعفر بالخطاب:

– يا عيسى من لقيك من آل أبي طالب فاكتب إليّ باسمه .. ومن لم يلقك فقيض ماله..

ثم قال له –محاولاً أن يستميل من حضر في مجلسه من آل أبي طالب ويطمعهم فيما عنده:

– يا عيسى .. إني أبعثك إلى ما بين هذين – وأشار إلى جنبيه – فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك، وابذل الأمان، وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به، فإنهم يعرفون مذاهبه.

عيسى: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين.

أبو جعفر: قد وجهت معك خير جند .. وخير قواد .. فمعك ابن عمك محمد بن أبي العباس أمير المؤمنين، وحميد بن قحطبة وهم فرسان العرب والعجم .. فاجعلهم لك مقدمة .. واجعل ابن أبي الكرام الجعفري وزيراً لا تقطع في أمر إلا بمشورته .. وابن الأصم لا تنزل في منزل إلا برأيه .. فإن له في ذلك تجربة.

الفصل الثالث

(1)

سبقت جيشَ الشام والعراق أخبارُه.. فطرقت مسامع أهل المدينة .. فازداد الذين آمنوا إيماناً وثباتاً ..

أما أصحاب القلوب الضعيفة والإيمان الهش .. فقد بلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله أسوأ الظن ..

أينامون الليل وهم يطلبون لهم مخرجاً من هذا المأزق الذي أوقعوا أنفسهم فيه؟

وعلم الإمام محمد بن عبد الله بخروج عيسى بن موسى لقتاله .. فأدرك أن وقت الجد قد حان .. فجمع أصحابه من أهل المدينة وجهينة وبني شجاع وبني سليم في مجلس واحد ثم قال لهم:

- أشيروا عليّ في الخروج أو المقام.

فسكت الناس .. فنظر الإمام إلى عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم وقال له:

- أشر عليّ يا أبا جعفر.

عبد الحميد: ألست تقاتل أشد بلاد الله رجالاً وأكثرها مالاً وسلاحاً؟.

الإمام: نعم.

عبد الحميد: فالرأي أن تسير بمن معك حتى تأتي أرض مصر .. فو الله لا يردك راد .. فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله.

فتقدم إلى الإمام رجل من أصحابه يسمى حنين بن عبد الله.. وقال له:

- أعوذ بالله أن تخرج من المدينة يا أمير المؤمنين .. لقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأن هذه البلدة .. ورأيتُني في درع حصينة فأوّلتُها المدينة.

فمال الإمام إلى كلام حنين لما فيه من الإقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..

الإمام: ماذا ترون يا قوم إن أقبل علينا الرجل .. هل نخرج إليه؟ .. أم نخندق على المدينة ونقاتل دون خندقنا؟

فتكلم رجل من بني سليم يسمى جابر بن أنس الرياحي فقال:

- يا أمير المؤمنين .. نحن أخوالك وجيرانك .. وفينا السلاح والكراع .. والله لقد جاء الإسلام والخيل في بني سليم أكثر منها بالحجاز .. لقد بقي فينا منها ما لم يبق مثله عند عربي تسكن إليه البادية .. فلا تخندق الخندق .. فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خندق خندقه لما الله أعلمه به .. فإنك إن خندقته لم يحسن القتال رجالك .. ولم توجه لنا الخيل بين الأزقة .. وإن الذين يُخندق دونهم هم الذين يقاتلون فيها .. وإن الذين يُخندق عليهم يحول الخندق دونهم.

فصاح رجل من بني شجاع وقال -يخاطب الإمام:

- خندق رسول الله .. فاقتدِ برأيه، أو تريد أنت أن ندع رأي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرأيك؟

جابر: إيهٍ يا ابن شجاع .. ما شيء أثقل عليك وعلى أصحابك من لقائهم .. ولا شيء أحب إلي وإلى أصحابي من مناجزتهم ..

ظل الإمام صامتاً يفكر في الأمر، وكان يميل إلى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. حتى ولو

كان في ذلك هلاكه.. ثم أفصح لهم عن رأيه..

الإمام: إنما نتبع في الخندق أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فلا يردني عنه أحد فلست بتاركه.

وركب الإمام فرسه .. وأمر الناس بالركوب وتوجه للبحث عن آثار خندق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. ليعيد حفره .. فأخذ معولاً وجعل يحفر .. فأخرج لبنة من آثار خندق رسول الله .. فرفعها فكبر .. وكبر الناس ..

ونادى الناس بعضهم بعضاً: أبشروا بالنصر .. هذا خندق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

واستمر الناس في حفر الخندق.. وعاد محمد إلى المدينة يعد العدة لخوض المعركة .. وأرسل إلى من لم يأته من أهل بيته ليوافيه ولينظر في رأيه .. وكان أول من أرسل إليهم هو الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر (عليهما السلام).

(2)

أشرفت طلائع الجيش العباسي على المدينة المنورة .. لتتفاجأ بالخندق حول مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. كما تفاجأت جيوش أبي سفيان بالأمس ..

كان جيش بني العباس قد جمع أشد الناس عداءً لأهل البيت (ع) .. ففيه الخراساني شديد التعصب لبني العباس .. والشامي الذي لا زالت جذور العداء الأموي لبني هاشم يسكن أعماقه .. وأقبلت كتيبة مقنعة بالحديد تخفق فوقها خمسمائة راية .. فجعلت تمشي حتى أشرفت على المدينة .. وأبصرها أهل المدينة .. ثم برز من وسطها فارس ظاهر القوة ..

فلما اشرأبت إليه الأعناق .. ونظر الناس إليه نادى بأعلى صوته:

– يا أهل المدينة .. إن الله قد حرم دماء بعضنا على بعض .. فاحملوا الأمان .. فمن قام تحت رايتنا فهو آمن .. ومن دخل المسجد فهو آمن .. ومن ألقى سلاحه فهو آمن .. ومن خرج من المدينة فهو آمن .. خلوا بيننا وبين صاحبنا .. فإما لنا أو له.

ثم توقف ينتظر جواب الناس ..

كان جمعٌ من أهل المدينة قد عرفوا من هو المتكلم ..

لقد كان المتكلم هو عيسى بن موسى ..

كان ذلك اليوم هو الثاني عشر من شهر رمضان المبارك .. وكان الوقت قبيل صلاة الظهر .. والشمس في كبد السماء .. وعيسى يراود أهل المدينة أن يسلموا إليه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليذبحه علناً ..

يا سبحان الله .. هل من لسان ناطق حاد يرمي هذا السفيه بما يلجم به لسانه .. ويرد عليه مكيدته!!



وسرى الخبر في أوساط أهل المدينة الواقفين وراء الخندق .. أن المتكلم هو عيسى بن موسى .. قائد الجيش العباسي .. وابن أخي أبي جعفر ..

فتحركت الضمائر الحية .. والنفوس الأبية.. وضج معسكر الإمام بصوت واحد: يا ابن الشاة .. يا ابن كذا .. يا ابن كذا.

وعاد عيسى بعد أن سمع ما لم يسره .. يتوارى بين جنده المقنعين بالحديد .. وتراجع جيش عيسى .. وغابت تلك الكتيبة عن أعين الجميع ..

ولما استقر عيسى في معسكره بالثنية .. جمع أتباعه ..

ابن قحطبة: لو كان أمير المؤمنين معنا لناجزه قبل أن يجتمع إليه أصحابه .. فقد بايعه كثير من الأقطار.

عيسى: إنهم والله لا يأتونه وقد حاصرنا المدينة.

العباس بن أبي العباس: فما تنتظر؟ .. هلا دخلت عليه المدينة فنقاتله.

عيسى: لا والله حتى أفرق عنه الناس.

ابن أبي الكرام: ماذا تفكر به يا مولاي؟.

عيسى: علي بقطع الحرير الفاخرة لأريكم ماذا أفعل.

فلما وضع بين يديه .. أمر كاتبه أن يكتب عليها .. ولم يترك وجيهاً و لا سفيهاً يؤمل في مثله إلا كتب له في قطعة منها:

((إن محمداً تعاطى ما ليس يعطيه الله، وتناول ما لم يؤته الله، قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ من تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ من تَشَاءُ وَتُذِلُّ من تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فعجل التخلُّص، وأقل التربُّص، وادع من أطاعك من قومك إلى الخروج معك)).

كان منظر القطع التي كتب عليها في حد ذاته مغرياً تميل إليه النفوس .. بل وتسحر به العيون .. فكيف بالاستجابة لما فيها؟! .. وبعدها المال والسلطان .. وبعد القطع أمتار من الحرير ..

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} ..

وانطلق جمع من العبيد يحملون تلك القطع في بطون نعالهم ..

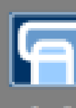
ليطرقوا أبواباً قد حددت لهم ..

مضى ذلك اليوم والجميع مترقب خائف ..

وبقي الإمام في داره يناجي ربه .. ويراسل أهل طاعته يستحثهم على الجهاد ..

كان الإمام قد أرسل مع ولاته خيار رجاله .. فجعل يرسل في طلبهم ..

فقد خرج رسول إلى مكة يأمر الحسن بن معاوية بالقدوم بمن معه إلى المدينة .. وآخر إلى العراق يأمر



إبراهيم بإعلان ثورته .. وثالث إلى موسى بالشام يأمره بالخروج فيمن معه ..

وطال الليل .. والجميع في ترقب وتوجس .. وطلع الفجر .. وصعد المؤذن إلى المئذنة .. ليسمع الناس أذان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأول .. (الله أكبر .. الله أكبر .. حي على الصلاة .. حي على خير العمل) فسكنت النفوس إلى أن الوضع لا زال مستقراً ..

***

كان من لا يعرف الخديعة والنفاق لا يدري ما يحدث!..

ويتساءل عن السر الذي جعل عيسى لا يأمر جيشه بالقتال..

فلما كان في مثل وقت الأمس.. اقتربت جنود بني العباس من المدينة .. حتى سدوا بكثرتهم الآفاق .. وبهروا بما فيها من العدد والعدة الألباب .. فإذا بفارس الأمس يبرز .. ويكرر ما قاله بالأمس!! ..

وكما هو الحال .. انطلقت ألسن أهل المدينة بتقريعه وسبه ورماه بعضهم بالحجارة .. فتراجع وغاب في أوساط جيشه ..

وجعل الجيش العباسي أثناء تراجعه يعرض قوته وكثرة عدده ..

وتكرر عتاب الأمس لعيسى .. كيف لا يناجز القوم؟! .. وهو في أشد قوته ..

وترددت الإجابة: لا والله حتى أفرق عنه الناس.

وكان السؤال: كيف؟

عيسى: أين مولى عبد الله بن معاوية؟ -وكان قائد مجففته ..

مولى عبد الله: ها أنا ذا يا مولاي.

عيسى: قم مع عشرة من خيار أصحابك ..

ثم التفت إلى بني هاشم ممن تخلفوا عن الخروج مع الإمام وقال لهم: قوموا مع هؤلاء فادخلوا على القوم .. فادعوهم وأعطوهم الأمان ..

وسار الجميع حتى نزلوا في سوق الحطابين .. حيث يجتمع جيش الإمام محمد بن عبد الله ..

فتكلم القاسم بن الحسن بن زيد فسبه الناس وكرهوا الاستماع إلى مقالته ..

وقال له رجال من أهل المدينة: هذا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معنا ونحن معه.

القاسم: وأنا ابن رسول الله .. وكثير ممن ترون أبناء رسول الله .. ونحن ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وحقن دمائكم والأمان لكم.

فثار الناس ضده .. ورشقوه بالحجارة والنبال ..

فما كان من القاسم- إلا أن قال: لغلام له: إلقط هذه النبال .. وهيا بنا يا قوم.



وأسرعوا في الخروج من المدينة .. لم ينالوا خيراً في الظاهر .. ولكنهم كانوا قد زرعوا بذور الشك في قلوب المتدينين من غير وعي ..

فبالأمس أرسل عيسى بالوعود والأموال ليفرق عن الإمام أصحاب المصالح .. ويقول لهم: ماعندنا خيرٌ لكم مما ترجون بمناصرة هذا الرجل، واليوم أرسل ليشكك المتبعون لأهل البيت بلا نظر ولا وعي ..

فلما دخل القاسم بن الحسن بن زيد على عيسى رمى بالنبال بين قدميه .. ثم قال له: ما تنتظر؟! .. أنظر ما يصنعون بنا ..

(3)

رجع الإمام محمد بن عبد الله (ع) إلى داره .. وقد رأى في وجوه أصحابه ما لم يره من ذي قبل..

وبينما هو عاكف في محرابه يؤدي رواتبه أقبل عليه رسول من أخيه موسى من بلاد الشام .. يخبره بخيانة رزام كاتب محمد بن خالد القسري .. ومعه رسالة نظر إليها الإمام فإذا فيها .. ((إني أخبرك .. أني لقيت الشام وأهله فكان أحسنهم قولاً الذي قال: والله لقد مللنا البلاء وضقنا به ذرعاً، حتى ما فينا لهذا الأمر موضع ولا لنا به حاجة.. ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا أو أمسينا من غد ليرفع أمرنا وليُدلّ علينا .. فكتبت إليك، وقد غيبت وجهي، وخفت على نفسي .. والسلام)) فطوى الإمام الرسالة وجعل يردد: إنا لله وإنا إليه راجعون .. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي تلك اللحظات طُرق الباب مرة أخرى .. فلم ينتظر الإمام غلمانه .. بل أسرع بنفسه نحو الباب لينظر من الطارق فإذا هو أبو سيار قد جاء إليه من عند أخيه إبراهيم يخبره أن إبراهيم قد أخذ البصرة .

***

خرج الإمام في الساعات الأخيرة من الليل نحو مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليصلي مع الناس صلاة الفجر وجعل ينظر إلى كل شيء .. وكأنه يودعه .. فلما طلع الفجر صلى بالناس .. ثم بقي في مصلاه يذكر الله ويقرأ أوراده فإذا به يسمع أصوات بعض الجند يدخلون المسجد فالتفت إليهم وقال لهم:

– ما الذي جاءبكم في هذه الساعة إلى هنا؟

الجند: نحن الحرس على مداخل المدينة .. جئنا نخبرك أن جمعاً من أهل المدينة أرادوا الخروج ليلة الأمس فمنعناهم .. ومن أصر على الخروج أجبرناه على الرجوع.

شعر الإمام أن الخيانة قد سرت بين أصحابه .. وأن الناس إن رجعوا عن بيعته هلكوا .. فكره أن يكون السبب في هلاكهم .. لذلك أمر أن يُنادى على الناس للاجتماع في المسجد..

ولما امتلأ المسجد بالناس صعد منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فحمد الله وأثنى عليه .. ثم



قال: أيها الناس .. إنا قد جمعنا للقتال .. وأخذنا عليكم المناقب .. وإن هذا العدو منكم قريب .. وهو في عدد كبير والنصر من الله والأمر بيده، وأنه قد بدا لي أن آذن لكم، وأخرج عنكم المناقب، وقد حللتم من بيعتي فمن أحب أن يقيم أقام ومن أحب أن ينصرف فلينصرف.

ثم نزل عن المنبر وأمر المنادي أن ينادي في الناس .. ادعوا لإخوانكم من أهل البصرة وإخوانكم في مكة .. فلما دخل دار مروان أقبل القاسم بن الحسن بن زيد رسولاً من عند عيسى .. فلما دخل على الإمام .. جعل يخوف الإمام ويهول عليه أمر عيسى .. فلما انتهى نظر إليه الإمام وقال له:

– والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك .. لأني لم أرك منذ كنت غلاماً في فرقَتَي خير وشر إلا كنت مع الشر على الخير.

ثم التفت إلى إبراهيم بن جعفر وقال له:

– انطلق مع هذا إلى عيسى فأبلغه ما أوصيتك.

فخرج إبراهيم بن جعفر .. حتى قدم على عيسى بن موسى ..

عيسى: ما وراءك؟

إبراهيم: يقول لك أمير المؤمنين محمد بن عبد الله ابن رسول الله .. إن لك برسول الله قرابة قريبة .. وإني أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه والعمل بطاعته .. وأحذرك نقمته وعذابه، وإني والله ما أنا منصرف عن هذا الأمر حتى ألقى الله عليه .. فإياك أن يقتلك من يدعوك إلى الله فتكون شر قتيل، أو تقتله فيكون أعظم لوزرك وأكثر لمأثمك.

ولم يكن عيسى لينتفع بمثل هذا القول فقد أعمت الدنيا بصيرته .. وحال حب السلطان بينه وبين النظر إلى عاقبته..

عيسى: ارجع إلى صاحبك وقل له ليس بيننا وبينه إلا القتال.

وجعل أصحاب الإمام يجوبون المدينة رافعين الرايات البيض وكانت هي راية الإمام ينادون بشعار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم الأحزاب: (أحد أحد) .. ولكن الشوارع لم تزدحم والناس لم يهرعوا لإجابة النداء ..

لقد خرج الناس من أطراف المدينة .. ومنهم من أغلق على نفسه باب داره ومنهم من أسرع في الإنضمام إلى صفوف عيسى ..

فالمال والإرهاب والتشكيك كان قد أدى مفعوله في أصحاب القلوب المريضة والإيمان المهزوز.. فما اجتمع من أصحاب الإمام إلا عداد أهل بدر..

وفي تلك اللحظات أشرف أصحاب عيسى على طرف الخندق في جحافل لا تحصى ورايات لا تكاد

تعد .. مقنعين بالحديد لا يكاد يرى منهم إلا بريق عيونهم.

كان جيش عيسى خليط غريب من الناس فرغم اختلاف صورهم، وتباين طباعهم، وتعدد أوطانهم ولغاتهم، لكنهم اجتمعوا لغرض واحد ألا وهو قتل ابن بنت نبيهم ..

فالخراساني والعراقي والشامي والمصري والقرشي والمدني كانوا يقفون في صفوف من وراء الخندق تحسبهم جميعاً -لشدة تعاضدهم في هذا الأمر- وقلوبهم شتى .. فاتحاد المصالح وحب الدنيا كان هو العنصر المشترك الذي جمع صفوفهم.

وتقدم عيسى بن موسى حتى عاينه الجميع واقترب من أصحاب محمد بن عبد الله وراح يصيح فيهم وينادي بأعلى صوته:

- يا أبا عبد الله .. إن أمير المؤمنين أمرني ألا أقتلك حتى أعرض عليك الأمان فلك على نفسك وأهلك وولدك وأصحابك، وتُعطى من المال كذا وكذا، ويقضى عنك دينك.. ويفعل لك ويفعل ..

فتقدم الإمام .. وخاطب عيسى قائلاً:

- إلْهُ عن هذا فو الله لو علمت أنه يثنيني عنكم فزع ويقربني منكم طمع ما كان هذا ..

(4)

تقدم عيسى بأصحابه نحو الخندق على ميمنته محمد بن أبي العباس وعلى ميسرته داود بن كراز من خراسان وسيدها .. المعروف فيها.

فلما رأى أصحاب الإمام جيش عيسى قد عزموا على القتال برز إليهم مولى لآل الزبير يقال له القاسم بن وائل وطلب البراز.

فإذا بصفوف عيسى تفصح عن رجل بهر العساكر بكمال جسمه وهيبة مطلعه وكمال عدته قد غطى الحديد جميع بدنه ..

فلما رآه القاسم بن وائل .. تراجع إلى الوراء وغاب بين صفوف أهل المدينة .. فضاق أصحاب الإمام به ذرعاً ..

وإنشرحت صدور أصحاب عيسى واستبشروا بذلك .. ولم تطل الفرحة فقد أفصحت صفوف جيش الإمام عن قائد شرطته أبو القلمس وهو يقول:

- والله ما انتفع في مثل هذا اليوم بسيف قط ..

فعاجل ذلك الفارس بضربة على حبل عاتقه وهو يقول: خذها وأنا ابن الفاروق..

فتردى الفارس العباسي .. وغاب الحلم .. وصاح صائح من بين صفوف بني العباس: قتلت خيراً من ألف فاروق.

لقد كان الرجل من خيار أهل خراسان ومن الفرسان المعدودين فيهم فبادر آخر يريد أن يأخذ بثأر صاحبه وخرج إلى ما بين الصفين فلم ير الناس منه إلا بريق عينيه ..

فخرج إليه رجل مُعتمٍ بعمامة بيضاء قد أشرق النور من جبينه وهو راجل يمشي في غير إكتراث .. فلما تواجها تكلما ملياً لا يدري أحد ماذا يقولان .. وفجأة ترجّل الفارس عن فرسه مغضباً وحمل على صاحب الإمام بسيفه فلم يشك أحد أنه قاتله ..

فمال عنها صاحب الإمام ثم استدار فضرب الرجل على خوذته بكل ما أوتي من قوة .. فأقعده على إليته وقيذاً لا حراك به ..

ثم كشف خوذة الرجل فاحتز رأسه .. ورماه نحو المعسكر العباسي .. ثم تراجع إلى صفوف أصحابه.

فاغتاظ أصحاب عيسى وبرز له آخر ودعاه لبرازه ..

فخرج إليه الرجل .. ففعل به كما فعل بالأول .. فكبر الإمام وكبر أصحابه .. ثم خرج الثالث فعالجه صاحب الإمام..

وأراد العودة .. ولكن سيلا من النبال الغادره حالت بينه وبين أصحابه.. فقد عاجله أصحاب عيسى فأردوه شهيداً .. بعد أن أبلى أحسن البلاء .. وجاهد بين يدي أبناء الأنبياء ..

وتحاشا أصحاب عيسى البراز ..

وبحنكة حميد بن قحطبة .. أدرك موقع الضعف في صفوف الإمام .. فخرج بثمانمائة فارس .. مقنعين بالحديد .. فداهم طرفا كان جند الإمام فيه قليل .. فتفرق أصحاب الإمام ..

وأشرف حميد وأصحابه على الخندق .. وهدموا حائطاً كان يحتمي به أصحاب الإمام .. فأرسل حميد إلى عيسى أن يرسل إليه بما يقتحم به الخندق .. فلما وصلت الرسل إلى عيسى- وكان قد ولى حميداً قتال الإمام وأصحابه- أمره بقلع أبواب دار قوم كانت قد وصفت له .. أنها أكبر من الخندق ..

وفكر عيسى في تضييق الخناق على الإمام وأصحابه.

عيسى- وهو يخاطب أبو الكرام الجعفري: لقد أخبرتني العيون أن هذا الرجل في ضعف .. وأنا أخاف أن ينكشف، وقد ظننت ألا مسلك له إلا إلى مكة .. فأضم إليك خمسمائة رجل .. فامض بهم معانداً عن الطريق حتى تأتي الشجرة فتقيم بها تقعطع مابين مكة والمدينة.

***

كان الإمام ينتظر وصول الحسن بن معاوية، فقد كان معه خيار أصحاب الإمام.. وكان قد أرسل إليه يأمره بالقدوم عليه .. فكان كلما أشتدت على الإمام هجمات أصحاب عيسى تلفت إلى خلفه يؤمل أن تقع عينه على الحسن بن معاوية.. وأهل مكة ..



ولكن لم يظهر الحسن بن معاوية .. ونادى المنادي لقد عبر حميد بن قحطبة الخندق فأسرع الإمام في جمع أصحابه نحو الجهة التى دخل منها حميد وباشر الإمام القتال بنفسه .. فجعل يتقدم لا يلوي على شيء .. فتراجع أصحاب حميد وانهزموا شر هزيمة ..

لكن أصحاب الإمام كانوا قلة .. فلم يتبعوا القوم .. فردهم حميد .. وعاود الكرة عليهم .. وهزمهم أصحاب الإمام مرة ثانية وثالثة ..

كان الإمام يقاتل في نفر من جهينة .. يقال لهم بنو شجاع .. وكانوا يتفانون في الدفاع عنه ..

فلما خاف حميد الهزيمة جمع خيار جنده ونظم صفوف جيشه .. وزحف فملأ الآفاق وضاقت به المسالك .. وأدرك كثير من أصحاب الإمام أن لا طاقة لهم بمواجهة ذلك الزحف فخاف بعضهم أن ينال الإمام بسوء .. فأسرع إليه عبد الله بن جعفر وقال له:

– بأبي أنت .. إنه والله مالك بما رأيت طاقة .. وما معك أحد يصدق القتال .. فأخرج الساعة حتى نلحق بالحسن بن معاوية في مكة .. فإن معه جلة أصحابك ..

الإمام: ياأبا جعفر .. والله لو خرجت لقُتِل أهلُ المدينة .. والله لا أرجع حتى أُقتل أو أَقتُل .. وأنت مني في سعة .. فاذهب حيث شئت.

فجعل عبد الله يساير الإمام إلى السوق .. فظهر أمامه أبو القلمس .. يقاتل أخا أسد بن المرزبان .. فتجالدا حتى تقطعت سيوفهما .. وتراجع كل منهم إلى أصحابه يبحث له عن سلاح ..

ثم تعاودا فكان أخو أسد بن المرزبان يمسك سيفاً وابن القلمس يخفي وراء درعه شيئاً .. فلما تقاربا قام أبو القلمس في ركائبه وأخرج سلاحه الذي أخفاه وراء درعه فضرب أخا أسد في صدره.. فإذا به يخر صريعاً ..

(5)

دارت أحداث المعركه في جميع أنحاء المدينة .. واستبسل الناس في القتال .. وجعل عبد الله بن خضير يقاتل مع الإمام أشد القتال.

وزالت الشمس من كبد السماء .. وكثر القتل والجراح في أصحاب الإمام ..

وبعد أن نظَّم الإمام أصحابه عاد إلى دار أخته زينب بنت عبد الله وقد أيقن بإقتراب موعد الشهادة .. وكأن أمراً هاماً كان يريد أن يوصيها به ..

محمد: أختاه .. إن زالت الشمس وأمطرت فإني أقتل .. وإن زالت ولم تمطر وهبت الرياح فإني أظفر بالقوم .. فإن زالت الشمس ياأختاه .. فاسجري التنانير وهيئي هذه الكتب .. فإذا أمطرت فأحرقيها .. فإن قدرتم على بدني ولم تقدروا على رأسي فأتوا به ظلة بني نبيه على مقدار أبعة أذرع أو خمسة .. فأحفروا

لي وادفنوني فيها.

زينب: سمعاً وطاعة يا أخي.

كان ولد زينب الحسين بن علي العابد بن الحسن المثلث ينظر إلى خاله بعين دامعة ..

فلما تهيأ الإمام للإنصراف .. مضى الحسين يتبعه قد لبس سلاحه وهو في السابعة عشر من عمره يريد أن يواسيه بنفسه ..

ولكن الإمام أحس بأن هناك من يتتبع خطواته .. فالتفت فوقع نظر الإمام على إبن أخته فرجع إليه .. وقال له:

– بُني عد إلى أمك .. لعلك تقوم بهذا الأمر من بعدي.

كان الحسين وحيد أمه .. كما كانت هي البنت الوحيدة لأبيها ..

وواصل الإمام مسيره حتى أشرف الإمام على القوم وهم في ساحة القتال .. يكاد كل منهم أن يفني الآخر ..

قوم يقاتلون على دينهم .. وآخرون يناضلون من أجل سلطانهم ..

رأى محمد أصحابه والقتال يكاد أن يفنيهم .. فأراد أن يفديهم بنفسه .. فتقدم إلى ساحة المعركة .. ونادى بأعلى صوته:

– ياحميد بن قحطبة .. ياحميد ..

وجعل يناديه حتى سمع نداءه والتفت نحوه.. فقال له الإمام:

– إن كنت فارساً وأنت تعتد ذلك على أهل خراسان فابرز لي فأنا محمد بن عبد الله ..

حميد: قد عرفتك .. وأنت الكريم إبن الكريم .. .. الشريف إبن الشريف .. لا والله يا أبا عبد الله .. لا أبرز لك وبين يدي من هؤلاء الأغمار إنسان واحد .. فإن فرغت منهم فسأبرز لك لعمري.

وتراجع حميد لما رأى الإمام قد قصده .. وحدد مكانه .. فدخل على عيسى مع إذان العصر ..

عيسى: أراك قد أبطأت في أمر رجالك .. فولِّ حمزة بن مالك حربه.

حميد: والله لو رمت انت ذلك ماتركتك .. أحين قتلت الرجال ووجدت ريح النصر؟!

عيسى: إني لا أراك جاداً في قتاله ..

حميد: أتتهمني؟ .. فو الله لأضربن محمداً حين أراه بسيفي أو أقتل دونه.

الفصل الرابع



(1)

كان كل شيء ينذر بالخطر .. فثورة محمد بالمدينة وخروج إبراهيم بالبصرة كان قد أحال حياة أبي جعفر إلى جحيم .. نسي معه كل شيء من متاع الدنيا .. وصار المار على قصر الخليفة يتساءل: عجباً أصارت قصور هاشمية أبي العباس وأبي جعفر مهجورة .. مابال المار بها لا يسمع صوت الغانيات ولا يرى لمجلس الشراب أثراً؟!!

أين ذهب الخليفة الجبار؟! فكم ملأت جنبات القصر ضحكاته الساخرة ..

شخص واحد كان يكثر الدخول والخروج من وإلى مجلس الخليفة .. إنه الوزير ابن الربيع .. وخرج ابن الربيع ولم تمض مدة من الزمن .. إلا وهو يقبل ومعه أعرابي من إعراب البادية .. قد أقبل به حتى أوقفه بين يدي الخلفية.

الإعرابي: من هذا؟

ابن الربيع: هذا أمير المؤمنين يا أحمق.

لم يستطع الإعرابي معرفة أبي جعفر .. فهو لم يره يوماً إلا وهو في أزهى ملابسه .. مشرق الوجه بادي السرور .. أما اليوم فقد امتلأ وجهه بشعر لحيته وشاربه .. وأسود لونه وغارت عيناه ..

لقد هجر النوم منذ أيام ولم يجد شهية للأكل .. ولا رغبة للزينة ..

كان يظن أن أمر الله قد أقبل وحان وقت الرحيل ..

ابن الربيع: يا أعرابي ادخل على أمير المؤمنين بما أقبلت به من أخبار محمد بن عبد الله بالمدينة ..

رفع أبو جعفر نظره إلى الإعرابي في تثاقل ..

الإعرابي: هرب محمد بن عبد الله.

أبو جعفر: كذبت نحن أهل بيت لا نفر.

وأُخرج الأعرابي من مجلس أبي جعفر ..

وعاد أبو جعفر إلى مصلاه .. وكأنه أحد النساك الذين طلقوا الدنيا وزهدوا فيها..

وأقبل يحدث نفسه وهو لا يكاد يشعر بمن حوله .. فقد انتابته حالة من الهذيان .. جعلته يضرب بقضيب من حديد كان في يده علىمصلاه ..

ودخل عليه أحد أعوانه .. وهو متكئ على أريكته وقال له:

– لقد أتت الأخبار بهزيمة عيسى ..

أبو جعفر– وقد جلس بعد اتكائه: كلا .. فأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء؟ أما إن ذلك لبعيد.



(2)

وهناك في المدينة أمر الإمام محمد بن عبد الله (ع) المؤذن أن يؤذن لصلاة العصر، وتوجه يصلي بالناس .. صلاة مودع .. لا يدري من يمينه ولا من شماله .. وجنود حميد بن قحطبة توشك أن تفني أولئك الذين ثبتوا حوله ..

ولما فرغ من صلاته قال لأصحابه:

- هل من شربة ماء ..

فاقبلت عليه امرأة كانت تعالج الحرجى فسألها الإمام: ممن المرأة؟

المرأة: ربيحة بنت أبي شاكر جعلت فداك .. انج بنفسك.

الإمام: إذاً لا يبقون في المدينة ديك يصرخ.

وركب الإمام فرسه وأقبل على أصحابه يودعهم ثم قال لهم: جزاكم الله عني خير الجزاء .. قد بايعتموني ولست بارحاً حتى أقتل .. فمن أحب أن ينصرف فقد أذنت له.

فأقبل ابن خضير على الإمام وقال:

- أتأذن لي يا مولاي حتى أدخل المدينة لبعض حاجتي.

الإمام: افعل ما شئت يا عبد الله.

وأسرع عبد الله بن خضير إلى المدينة فتوجه إلى السجن الذي ينزل فيه رياح.. فدخل عليه فقطع رأسه..

وأقبل يريد سجن محمد بن خالد القسري.. فصاح أهل السجن بمحمد: احذر فإن ابن خضير إن أدركك قتلك.

فاجتمع هو ومن معه فسدوا باب السجن ..

فأقبل عليه عبد الله بن خضير يريد فتحه فأعياه ذلك .. وكان على عجل وأراد حرق الديوان .. فوجد الإمام قد أوصى بحرقه .. فأحرق ما بقي منه من أسماء المبايعين ..

ثم عاد فرأى الإمام قد عرقب فرسه ومعه أعوان من بني شجاع ..

جعل ابن خضير ينظر إلى أهل خراسان وأهل الشام والعراق وقد نكوا بأصحاب الإمام نكاية شديدة وبلغوا بهم كل مبلغ .. فخشي أن يصاب الإمام بأذى ..

ابن خضير: اناشدك بالله .. امض إلى البصرة أو غيرها.

الإمام: لا والله لا تبتلون بي مرتين .. ولكن اذهب أنت حيث شئت يا عبد الله.. فأنت في حل من بيعتي.

ابن خضير: وأين المذهب منك .. لا والله لا أفارقك أو أقتل دونك.

وأقبل ابن خضير يخوض غمار الموت لا يبالي .. وجعل يدفع عن الإمام بكل ما أوتي من قوة..

وزحف الإمام بأصحابه وتراجع جيش عيسى رغم كثرته .. ومال الإمام على رجل من أصحابه يسمى عبد الله بن عامر وقال له:

– تغشانا سحابة فإن أمطرتنا ظفرنا .. وإن تجاوزتنا إليهم فانظر إلى دمي على أحجار الزيت.

***

التفت بعض أصحاب الإمام فرأوا راية بني العباس السوداء قد رفعت على مئذنة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فارتفع الصوت في معسكر الإمام: إن القوم من خلفكم .. فتراجع الناس مخافة وقوع السيوف على أدبارهم ..

فعطف عليهم حميد بن قحطبة من أمامهم فقتل وجوههم وأنكى أبطالهم ..

كان الأمر مجرد حيلة .. فقد خرجت امرأة من بني العباس كانت تسمى أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبد الله بن العباس .. حتى أتت مئذنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فرفعت فوقها قماشاً أسود ..

وتقدم ابن خضير راجلاً يحمل سيفه في رقاب رجال ابن قحطبة قد تهيب الناس مبارزته .. كلما حمل على فئة ولّت مدبرة..

وجعل حميد ينادي بالأمان لابن خضير .. لكن ابن خضير ما كان ليلتفت إلى شيء ..

فقد باع نفسه لله وللقتال بين يدي أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

فجعل ينشد:

لا تسقه حرزا ولا حليباً أن لم تجد سابحاً يعبوبا

ذا ميعة يلتهم الجبوبا كالذئب يتلو طمعا قريبا

يبادر الآثار أن تؤوبا وحاجب الجوبة أن تغيبا

***

وتقدم الإمام ليقاتل القوم بنفسه ..

فاقترب هشام بن عمارة بن الوليد بن عدي بن الخيار من الإمام وقال له:

– إني لا آمن أن يخذلك من ترى .. فاجعلني إلى جوارك .. فأشهد الله أن غلامي هذا حر لوجه الله إن



رميت أبداً أو نقتل أو أقتل أو تغلب.

وجعل هشام يقاتل بين يدي الإمام ..

الإمام: هشام .. هشام ..

وما إن التفت هشام إلى الإمام حتى رأى نشابة قد وقعت في ترسه .. ففلقته اثنين .. ثم خسفت درعه ..

الإمام: ويلك ما رأيت هذا قط يا هشام .. أيهما أحب إليك نفسي أم نفسك.

هشام: بل نفسك.

الإمام: فأنت حر فانطلق.

ونظر الإمام فرأى ابن خضير قد أحاطه القوم ووضعوا فيه سيوفهم .. فأسرع لإستنقاذه .. فلم يبلغه حتى كان القوم قد احتزوا رأسه .. فجعل الإمام يقاتل عن جثة ابن حضير حتى جثا عليها وحملها إلى أصحابه ..

وجعل الإمام يقاتل القوم .. ولكن أنصاره كانوا قد رحلوا إلى الدار الآخرة .. وسبقوه إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليبثوا إليه شكواهم ..

ولم يكن يلتفت يميناً ولا شمالاً و أمامه ولا خلفه .. إلا ورأى من جنده وأنصاره جريحاً أو قتيلاً مضرجاً بدمه ..

فأقبل يقاتل القوم بكل ما أوتي من قوة..

***

مرت السحابة وأوشكت أن تضع حملها وتنزل المطر على جيش الإمام .. واستبشر عبد الله بن عامر خيراً..

ولكن لم يطل اسبشاره .. فما هي إلا لحظات حتى انقشعت عنهم تلك السحابة دون أن تمطر ..

وقدم سهم من بين أوساط جيش قحطبة .. فاستقر دون شحمة أذنه اليمنى وأدرك أنه الموت والشهادة ..

وفي تلك اللحظات التفت الإمام إلى رجل من تجار المدينة كان واقفاً إلى جواره .. وكان له عند الإمام دين فلم يجد في يده إلا سيفه ذو الفقار الذي يقاتل به فدفعه إلى ذلك التاجر وقال له:

- خذ هذا السيف .. فإنك لا تلقى أحداً من آل أبي طالب إلا أخذه وأعطاك حقك.

ثم تنحى جانباً وأسند ظهره إلى جدار..

ثم برك على ركبتيه .. وجعل يذب الناس عن نفسه بسيف آخر كان قد أخذه .. وهو يقول:

ويحكم أنا ابن بنت نبيكم .. محرج مظلوم ..

فلم يلتفت أحد إلى مقاله ..

وجعلوا يندفعون نحوه كل يريد أن يظفر به .. وينال رضا الأمير وسخط الرحمن ..

كانت الدماء تسيل.

والمشهد أليم .. أليم ..

فدماء أبناء الأنبياء تسفك .. ودماء أبناء الأدعياء محترمة معصومة!!

***

جعلت الشمس تبحث عن غيمة تتوارى خلفها كي لا تذوب حزناً وكمداً فيذهب ضوؤها .. وجعلت السماء ترسل المزن لكي تنزل قطرها لتعبر عن حزنها.. واستمر الأسد الفريد .. يدافع الأقران باركاً على ركبتيه ..

وازدادت الدماء تدفقاً ..

واكتسى المكان بحمرة الدماء .. وأظلمت الأرض بتكاثف الغيوم في السماء ..

وكأنها أتت لتشهد آخر مراحل الجريمة .. لتكون شاهداً لا يرغمه السلطان الجائر على تغيير أقواله ..

وأيقن الجميع أن الإمام لن ينتصب على قدميه مرة أخرى .. إلا في ساحة المحشر .. ليقدم شكواه إلى الله .. ولكن الأسد الضرغام فاجأ الجميع .. لقد غرس سيفه بين يديه .. بحركة سريعة واستعان به كي ينتصب واقفاً..

ولكن كان هناك من يتوجه نحو الإمام وتفرق له الصفوف .. وحُق له أن يدوس كل من يعترض طريقه بحوافر خيله..

كان ذلك الفارس يفك الحلقة التي كونها الجنود حول الإمام الجريح الغارق في دمائه الذي أفرده الزمان .. وخذله الأنصار.

كان الإمام يتوكأ على سيفه يجاهد نفسه كي ينتصب .. وفجأة تحطم السيف تحت يديه .. فلم يتحمل السيف جسد الإمام وقلبه المثقل بالهموم ..

فبرك مرة أخرى على ركبتيه.. ولم يمنع ذلك الفارس إباء الفرسان .. ولا كون الخصم أعزل السلاح أن يهوي بسيفه على تلك الرقبة الطاهرة ..

كان الفارس هو قائد الجيش حميد بن قحطبة .. الذي دعاه الإمام للمبارزة يوم كان الناس للناس أكفاء .. فلم يستجب ولم تظهر بطولته إلا عندما صار الإمام صريعاً مضرجاً .. فريداً مجرداً من الأنصار .. جالساً لا يقوى على القيام .. مجرداً أعزلاً ليس معه سلاح ..

فقبح الله أيدي وضمائر الجبناء ..

كيف صارت لا تحمل ولا مجرد بصيص من نور الحرية والإيمان ..

وتقدم نحو الإمام ففصل الرأس عن الجسد .. فلم تطق الروح الطاهرة البقاء ..



وسارعت في العروج إلى السماء .. وصارت المدينة من غير حام يحميها ..

(3)

اجتاح ذلك الجيش الخليط الناقم على كل شيء المدينة من كل جوانبها ..

واقتحمت الديار .. واستبيحت الأموال ..

وتسابق الفرسان إلى جمع رؤوس العزل من السلاح..

وأسرع جزارو البشر ينصبون الأعمدة في مشهد وحشي فريد .. وكأن الجميع يعد لإقامة حفل الانتصار على الاشلاء والدماء ..

وبدأت فرقة العزف تعزف مقطوعتها الموسيقية الفريدة ..

أنين ينبعث من أزقة وشوارع المدينة .. وعويل من بيوتها ..

وعربيد يمشي بين الجثث المتناثرة يبحث عن رقبة سليمة يعزف بسيفه عليها وكأنما هي وتر ..

فالرؤوس ثمينة وغنيمة .. فمن أتى السلطان برأس أعطاه الكثير من المال..

ولم يجد ذلك العربيد رأساً .. لقد جردت كل الجثث من الرؤوس .. وبدأ الجزار يعلقها على الأعمدة ليباشر سلخها ..

ولكن نشوة النصر وسكره كانت تحتاج إلى معزوفة حتى ولو كانت على رؤوس الأحياء ورقابها ..

فقد خرج عربيد من ألف عربيد من أوساط الجثث .. وتوجه نحو الأحياء .. بدأوا يطوقون الأبواب ..

فأوصدت ولم تفتح .. ورأى باب دار ضعيف .. فأمل أن يجد خلفه مراده ..

فكسر الباب فلم تقع عيناه خلف الباب إلا على شيخ أعمى .. قد ابيض شعره واحدودب ظهره .. وأثر السجود في جبينه.. وأشرق النور من وجهه .. حوله فتاة تعنى بأمره .. وتقوده إلى مراده ..

أب وابنته قد أغلقوا على أنفسهم باب دارهم وكفوا أذاهم عن جيرانهم ..

ذعرت الفتاة .. وهب الرجل ينفض عنه وطأة الأعوام الطويلة.. ويتجاوز عمى البصر ليستضيء بنور البصيرة .. هب ليتلمس بيده جداراً اعتاد أيام الصحة أن يعلق عليه سيفه ..

وسل أعمى البصر نيّر البصيرة سيفه ليدافع عن عرضه ونفسه ..

ودارت معركة غير متكافئة بين الشيخ العاجز الهرم .. وبين رجال غلاظ شداد يرونه من حيث لا يراهم ..

وطاشت ضربات الشيخ الطاعن في السن ..

وأخفقت تلك المحاولة ..

وتقدم العلج السفيه ليعزف أنشودة الموت .. على رقبة الشيخ الضرير ..

فلا الشعر الأبيض .. ولا الظهر الأحدب يمكن أن يشفع .. وتدحرج الرأس ذو الشعر الأبيض .. ليقع

بين يدي ابنته الناعمة بنت أبي الشدائد ..

أرادت أن تضمه إلى صدرها لعلها تطفئ لوعها وحزنها .. لكن الرأس كان هو المطلوب ..

فقد انتزعه الجندي .. وأسرع ليستلم الثمن ..

وقطعت في ذلك اليوم مئات الرؤوس بلا ذنب..

***

وقف عيسى يستقبل جنده .. ويحصي غنيمته ..

فكان أول رأس وضع بين يديه .. رأس عبد الله بن خضير .. لا يكاد يُعرف لكثرة ما فيه من الجروح ..

وتتابعت الرؤوس وكثر عددها ..

وأقبل عيسى يفحصها .. وفي تلك اللحظة أقبل حميد بن قحطبة .. والفخر يكاد ينطلق من كل خلية في جسده .. ومن على صهوة جواده .. رمى برأس كان يعدل عند عيسى كل الرؤوس .. ويعدل عند الله ورسوله كل الناس .. إنه رأس ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..

حميد: هذا رأس عدو أمير المؤمنين .. محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبي طالب.

وظهرت الإبتسامة على وجه عيسى .. وخر ساجداً لله وشاكراً له أن مكنه من سفك دم ابن رسول الله ..

سجدت لقتل ابن محمد .. فمن علمك السجود؟ ..

سجدت فسل رسول الله .. هل يغنيك يوم اللقاء هذا السجود؟ ..

سجدت لقتل آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مغتبطاً فرحاً ..

أَلِلَّه؟!! أم لشيطان الهوى مرغت خدك في الثرى؟!!

ورفع رأسه من سجوده .. ليرى كوماً آخر من الرؤوس قد وضع بين يديه .. ليس فيهم إلا ناسك أو زاهد أو عالم ..

وأقبل الجندي برأس الشيخ الضرير ..

كان ابن أبي الكرام .. ومحمد بن لوط واقفين إلى جوار عيسى .. فاسترجعا عندما نظرا إلى ذلك الرأس ..

ابن أبي الكرام: والله ما بقي من أهل المدينة أحد .. هذا رأس أبي الشدائد فالح بن معمر .. رجل من بني فزارة مكفوف!!

وحينها أدرك عيسى بن موسى أن جنده قد أوغلوا في سفك الدماء فصاح في أصحابه قائلاً:

– فليناد أحدكم .. من جاء برأس ضربنا رأسه ..

وبهذه الكلمات توقف شلال الدماء بعد أن احمرت الأرض وسالت الدماء .. لتحيل ماء المطر الذي كان

ينزل بغزارة إلى أحمر قان .. ليسيل دم محمد بن عبد الله إلى أحجار الزيت .. ويعلم الجميع من الذي قصده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ((إن النفس الزكية يقتل فيسيل دمه إلى أحجار الزيت لقاتله ثلث عذاب أهل جهنم))

(4)

أشرفت شمس الرابع عشر من الشهر الكريم لعام 145 هجرية .. تمضي نحو الغروب .. خجلاء شاحبة .. قد احمر لونها وخفت ضوؤها .. وغارت أشعتها .. شاكية باكية .. وعند الله بما اقترفه المجرمون شاهدة ..

وساد سكون موحش .. موحش .. وغم قاتل ..

وبيوت مقفرة .. وضمائر ميتة .. وأعين دامعة ..

وهناك .. في دور لا يُرى فيها إلا مصباح شاحب .. أو ظلام موحش ..

وقفت عقيلة بني هاشم الثانية .. أم المصائب والأحزان .. زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي .. تسامر النجوم الصامتة .. وتناجي البدر الطالع .. الجاهل لما سبق طلوعه .. وتتلفت في دار كان يزدحم قبل سنوات بالفتيان والشيوخ ..

تنظر يميناً .. ليسألها الجدار الصامت .. أين أبوك؟ أين عبد الله الكامل؟ .. أين عمك الحسن المثلث؟ .. أين عمك الأصغر إبراهيم بن الحسن؟ ..

صرخ الظلام .. وأجابه الصمت ..

الصمت القاتل .. كلهم في سجن أبي جعفر صرعى ..

فأين الزوج والحبيب؟ .. وأين الأب والأعمام؟.. أين علي (العابد)؟ .. وأين أخوه العباس بن الحسن؟ .. وأين علي بن محمد؟ .. وأين ابناء العم والأقارب؟ ..

كلهم صرعى .. كلهم تحت الثرى .. من ذا يواسيك يا بنت عبد الله .. من ذا يخفف حزنك يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!..

فالزوج قتيل .. والأب قتيل .. والعم قتيل .. والأخ الحبيب لا زالت مياة الأمطار تفرق دمه بين الشعاب ..

ما أطول هذا الليل .. متى ينزاح؟ .. متى؟ ..

كانت الدموع تذرف بغزارة .. ولكن اللسان ما كان لينطق بفحش أو سوء .. كلمة واحدة هي التي عرفها لسان زينب .. (إنا لله وأنا إله راجعون) .. (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين).

وبعد ليل طويل .. أتى النهار .. ليؤنس زينب .. ويذكرها بصباح الأمس يوم كانت الديار بالأحباب مزدهرة .. والقلوب بقربهم مطمئنة ..

فتهيج الشوق .. واشتدت لوعة القلب الحزين لرؤية الأحباب .. ولو حتى جثث بلا رؤوس .. ولا أطراف ..

وبينما هي تعاني أشد الآلام ..

أقبلت عليها ابنة أخيها فاطمة بنت محمد بن عبد الله .. فضمتها إلى صدرها ..

فاطمة: ألا يتركنا هؤلاء فنواري حثة أبي .. فقد منعنا جند عيسى من ذلك؟!

زينب: بلى يا بنية .. نرسل إلى هذا الرجل لنطلبها منه .. بعد أن نالوا مرادهم..

وأسرع بعض موالي بني هاشم إلى مجلس عيسى .. فلما دخل المجلس رأى أمة من الناس قد اجتمعوا وتحلقوا ينظرون إلى رأس في طبق أبيض .. فبهت لما رأى ولما سمع .. لقد كان الرأس هو رأس محمد بن عبد الله النفس الزكية ..

سمع عيسى يقول:

– ما تقولون في هذا؟! ..

فتنافس الخطباء من الذين باعوا دينهم بدنياهم .. يقعون في الزكي الطاهر النفس الزكية .. يتلمسون بذلك رضا سلطان الدنيا ولا يأبهون لغضب سلطان سلاطين الدنيا والآخرة ..

فلما عظم المقال وتطاول السفهاء .. تقدم أحد قواد الجيش العباسي .. وقد ثارت في نفسه بادرة للإنصاف .. بعد أن ساءه كثرة الزيف والإفتراء .. فصاح فيهم:

– كذبتم والله .. وقلتم باطلاً .. ما على هذا قاتلناه .. لكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصا المسلمين .. وإنه كان لصواماً قواماً ..

فخرست ألسن المتملقين .. وقطعت ألسن المتقولين ..

ثم تكلم رسول زينب بنت عبد الله فقال لعيسى: يا عيسى .. تقول لك مولاتي زينت بنت عبد الله .. ومولاتي فاطمة بنت محمد إنكم قد قتلتم هذا الرجل .. وقضيتم حاجتكم منه .. فلو أذنتم لنا فواريناه ..

عيسى: أما قولها أني نلت منه .. فوالله ما أمرت ولا علمت .. فليواريانه راشدتين.

وخرج رسول زينب وكل عضو في جسده يكاد أن ينطلق ليقول لعيسى: كذبت وافتريت .. بل بأمرك ومشورتك.... أنسيت أنك سجدت حين أتوك برأسه؟!

وأرسرع إلى زينب يقول لها: قد أذن لك عيسى يا مولاتي في قبر أخيك ..

فسارع فتيان بني هاشم إلى جثة الإمام .. فاخذوها بعد أن بات مع اصحابه في العراء .. جثثاً بلا رؤوس ..

فلما ادخلوا جثته على نساء آل محمد .. جعلن ينظرن إلى الجسد .. يكدن أن ينكرنه .. فاشتد

النحيب .. وارتفع العويل ..

وجعلت عقيلة آل محمد تقلب الجسد .. وتتفحصه .. فبقاه في العراء قد غير لونه ..

ولما وقع بصرها على بقعة في جسده .. أيقنت أن الجثة حثة أخيها .. فجعلت له فراشاً تحته ..

وأمرت من يحفر له قبره حيث أوصاها ..

وصارت الدماء تخرج من جسده .. كأنه قتل الساعة .. وكلما وضعوا فراشاً تلطخ بدمه الزكي الطاهر ..

حتى غير له ثلاثاً ..

وبينما زينب على هذه الحال .. دخل عليها ولدها الحسين بن علي .. مع من كان يحفر القبر ..

الحسين: أماه .. ان في القبر صخرة منعتنا من إكمال حفره ..

زينب: أخرجوها يا ولدي .. فلا يقبر خالك إلا حيث أوصى.

فعاد الحسين .. وبعد طول عناء أخرجت تلك

الصخرة .. فإذا هو مكتوب عليها (هذا قبر الحسين بن على بن أبي طالب) .

فلما علمت زينب، قالت: رحم الله أخي كان أعلم حين أوصى أن يدفن في هذا الموضع ..

يا صاحِبِّي دعا الملامة وأعلما — أن لست في هذا بألوم منكما

وقفا بقبر للنبي فسلما — لا بأس أن تقفا به وتسلما

قبر تضمن خير أهل زمانه — حسباً وطيب سجية وتكرما

رجل نفى بالعدل جور بلادنا — وعفا عظيمات الأمور فأنعما

لم يجتنب قصد السبيل ولم — عنه ولم يفتح بفاحشة فما

يجر

لو أعظم الحدثان شيئاً قبله — بعد النبي به لكنت مُعظما

أو كان امتع بالسلامة قبله — أحداً لكان قُصاره أن يسلما

بطلاً يخوض بنفسه غمراتها — لا طائشاً عشا ولا مستسلما

حتى مضت فيه السيوف وربما — كان حتوفهم السيوف وربما

أضحى بنو حسن أبيح حريمهم — فينا وأصبح نهبهم متقسما

ونساؤهم في دورهن نوائح — سجع الحمام إذا الحمام ترنما

يتوسلون بقتلهم ويرونه — شرفاً لهم عند الإمام ومغنما

والله لو شهد النبي محمد — صلى الإله على النبي وسلما

إشراع أمته الأسنة لابنه — حتى تقطر من ظباتهم

دما

حقا لأدرك أنهم قد ضيعوا

حقا لأدرك أنهم قد ضيعوا تلــك القرابــة واســتحلوا المحرما

تم محج مالله

(1) يعني في المدينة.